

السياسة والإيديولوجيا في روسيا بمواجهة الدولة العثمانية. توظيف الجامعتين الأرثوذكسية والسلافية في تفكيك السلطنة، في: ندوة أعمال روسيا وأرثوذكس الشرق، جامعة البلنند 1998.

السياسة الروسية إزاء الدولة العثمانية: مسألة توظيف الجامعتين الأرثوذكسية والسلافية في تفكيك السلطنة

عبد الرؤوف سنو
الجامعة اللبنانية - الفرع الأول

تضافرت على مدى قرون عدة عوامل دينية وأيديولوجية واستراتيجية وسياسية واقتصادية كانت تدفع روسيا للقضاء على الدولة العثمانية والاستحواذ على عاصمتها وممراتها، تارة بإسلوب التوسع العسكري وتارة أخرى من خلال تفاهم دولي¹. وفي سبيل تحقيق هذا الهدف، أعلنت أنها الوريث " الشرعي " للأمبراطورية البيزنطية والحامية العالمية والمدافعة عن العقيدة الأرثوذكسية². وقامت وبناءً على ذلك، بادعاء زعامة العالم الأرثوذكسي الخاضع للسلطنة العثمانية وتسخيرها لهذا الهدف مستخدمة في ذلك ما سُمي بـ **الجامعة الأرثوذكسية**³، التي كانت العقيدة المشتركة التي بنت عليها تضامنها مع الأرثوذكس من رعايا السلطان العثماني، من البلقان حتى بلاد الشام، دون اعتبار للعرق أو الثقافة⁴. وقد بقيت هذه الإيديولوجية الدينية ذات أثر فعال في تعبئة الأرثوذكس خلف السياسة الروسية تجاه الدولة العثمانية حتى حرب القرم، عندما تفوقت عليها **"الجامعة السلافية"** التي وُظفت في الصراع مع الدولة العثمانية واستثنت من برنامجها السلاف من غير الأرثوذكس.

وبفضل تأثير أفكار الجامعتين الأرثوذكسية والسلافية، تمكنت روسيا من ممارسة نفوذ وحماية على شعوب السلطنة من الأرثوذكس في اليونان والرومان والسلاف الأرثوذكس في الصرب وبلغاريا ومقدونيا والجبل الأسود)، وأن تتدخل في شؤون المشرق العثماني، وخصوصاً في فلسطين، وأن توظف تطلعات تلك الشعوب إلى القومية والتحرر من الحكم العثماني ضمن استراتيجيتها الهادفة إلى القضاء على السلطنة⁵.

وخلال القرن الأول من الصراع بينها وبين الدولة العثمانية، تمكنت روسيا من تحقيق نصف برنامجها التوسعي على حساب تلك الدولة العثمانية. فبطرس الأكبر (1682-1725) هو الذي قاد **"الزحف نحو الجنوب"** (الساحل الشمالي للبحر الأسود)⁶، وأوصى بمتابعته للوصول إلى الدردنيل والبوسفور باعتبارهما **"مفاتيح البيت الروسي"**⁷، فيما تمكنت القيصرية كاترين الثانية (1762-1796) من جعل البحر الأسود **"بحيرة روسية"**، وأمّنت بالتالي لسفنها التجارية عبور الممرات إلى المتوسط، فضلاً عن ادعاء حماية رعايا السلطان العثماني من الأرثوذكس، طبقاً لتفسيرها لمعاهدة " كوتشك قينارجه " الموقعة معه في عام 1774⁸.

وطوال القرن التالي (التاسع عشر)، واصلت روسيا قداماً تنفيذ ما تبقى من برنامجها الإستراتيجي والديني- السياسي والاقتصادي تجاه السلطنة العثمانية، وهو الوصول إلى الآستانة والممرات. فشهد القرن المذكور اندلاع أربع حروب كبرى بينها وبين الدولة العثمانية (1806-1812، 1828-1829، 1853-1856، 1877-1878) وتوقيعها مع السلطنة عام 1833 معاهدة فريدة، هي معاهدة هنكار أسكله سي⁹. وفي الحربين الثانية والرابعة، وصلت جيوشها إلى عمق الأراضي العثمانية: إلى أدرنة عام 1829، وإلى سان ستيفانو (St.Stefano) عام 1878- على بعد عشرة أميال من إستانبول¹⁰. وفيما شنت روسيا الحربين الأولى والثانية لدعم شعوب البلقان الأرثوذكسية - السلافية (الصرب) والأرثوذكسية اليونانية¹¹، خاضت الحرب الثالثة للتأكيد على " حقوقها " في حماية الأماكن المقدسة في فلسطين¹². وقد مثلت هذه الحرب ذروة ادعاءاتها في حماية الأرثوذكس ومصالحهم في الدولة العثمانية. أما الحرب الرابعة والأخيرة (1877-1878)، فكانت لأجل بعث العالم السلافي بزعامتها والذي جرى التعبير عنه بخلق دولة بلغاريا الكبرى. وقد شكل هذا المشروع خروجاً واضحاً لروسيا عن الجامعة الأرثوذكسية إلى الجامعة السلافية.

بعد هذه المقدمة، إنني أطرح الفرضية التالية: إن الجامعتين الأرثوذكسية والسلافية وجدتا جذورهما في الوعي الشعبي الروسي وكانتا من أدوات روسيا لتجميع شعوب السلطنة من الأرثوذكس والأرثوذكس السلاف خلفها في استراتيجيتها الهادفة إلى القضاء على الدولة العثمانية، وأنهما كانتا تخدمان أولاً وأخيراً مصالحها القومية.

الجامعة الأرثوذكسية، نشونها وتطورها

1) موسكو " روما الثالثة "

منذ سقوط القسطنطينية، حاضرة الإمبراطورية البيزنطية ومعقل المسيحية الشرقية بأيدي العثمانيين، لم تنقطع العلاقات بين روسيا وبين تلك المدينة أو بينها وبين العالم الشرقي. فقد ادعت أنها الوريث الشرعي للإمبراطورية البيزنطية، وأن موسكو التي تحولت إلى عاصمة روحية لروسيا، أصبحت روما الثالثة الحامية العالمية والمدافعة الوحيدة عن العقيدة الأرثوذكسية وعليها تقع مسؤولية خاصة لأجل الدين الصحيح بعد سقوط القسطنطينية¹³.

" **فروما الأولى انهارت بسبب هرطقاتها** "، كما جاء في رسالة من الراهب فيلوتوس إلى الغراندوق باسيل الثالث " **وروما الثانية سقطت ضحية الأتراك، ولكن روما جديدة وثالثة قد انبعثت من الشمال كالشمس تضيء الكون كله ... إن روما الثالثة ستبقى حتى نهاية العالم، لأنها روما الأخيرة. لن يكون لموسكو خلف، ومن غير المعقول أن تكون هناك روما رابعة** " ¹⁴. وقد بدأت أيديولوجية "موسكو روما الثالثة" تأخذ منذ ذلك الحين حيزاً ملحوظاً في الوعي الشعبي الروسي وفي سياسة روسيا الدينية - السياسية. ومنذ عصر إيفان الرابع، أخذت تكثف من اتصالاتها بالكنائس الشرقية وترسل إليها البعثات¹⁵.

ومما كان يقوي من ادعاءات روسيا في وراثة الإمبراطورية البيزنطية علاقاتها التقليدية المميزة بتلك الدولة وأهمية القسطنطينية من الناحية الدينية - السياسية. فمنذ القرن العاشر الميلادي، توطدت العلاقات الروسية البيزنطية عندما تنصر الأمراء الروس في كييف واعتنقوا الأرثوذكسية وتبعوا القسطنطينية كنسياً¹⁶. وبعد سقوط تلك المدينة بأيدي العثمانيين، أصبحت كنيسة موسكو، التي ورثت الطقوس البيزنطية، مستقلة من الناحية العملية، ورسمياً منذ عام 1589. وقد فتح هذا الطريق أمام القيصرية الروس للعب دور أباطرة بيزنطة سياسياً ودينيًا: إهداء حمل تراث بيزنطة وحماية المسيحية الأرثوذكسية بصفتهم الحكام الأرثوذكسيين الوحيدين الذين لم يخضعوا للهيمنة الإسلامية العثمانية¹⁷ واعتبار بلادهم "كيانية جيوسياسية مساوية لكل الغرب، ... مع سعي روجي وفلسفي مميز لأجل الكليات النهائية في التاريخ"¹⁸. وقد أخذ إسمهم يظهر منذ ذلك الحين في صلوات الأرثوذكس في المكان الذي كان يُذكر فيه إسم أباطرة بيزنطة¹⁹. وقد رأى قيصرية روسيا أن من واجبهم انقاذ الأرثوذكسية من "البربرية الإسلامية والهرطقة الغربية"²⁰ وإعادة تحرير القسطنطينية و "نصب الصليب مجدداً على آيا صوفيا"²¹ وهذا ما أدى إلى بروز فكرة "الجامعة الأرثوذكسية" بزعامتهم، ومن ثم إلى تسييسها، وأن عليهم تقع مسؤولية حمل هذه "الرسالة"²².

بالإضافة إلى ذلك، احتلت القدس وأماكنها المقدسة مكانة عالية في الوعيين الروسي الشعبي والرسمي، من الفلاح العادي إلى القيصر نفسه، حيث أعتبرت "المدينة الأم" و"قمة الأرثوذكسية"²³. وقد دخلت القدس بشكل مكثف في عملية التوظيف السياسي للدولة لأجل تثبيت سلطتها²⁴، وكان لها تأثير على سلوك الروس وأنماط تفكيرهم وكانت مصدر إلهام للنخب الدينية والفكرية، حيث انعكست بشكل ملحوظ في الأدب الديني والدنيوي وعلى الموسيقى وفن العمارة، حتى أن قيصرية روسيا نظروا إلى موسكو بعد سقوطها بيد المسلمين عام 1453 "كأيقونة لقدس جديدة"²⁵.

نتيجة لكل هذه العوامل، نما لدى الشعب الروسي تدريجاً عبر الأجيال شعور وطني آمن بـ "رسالة" بلاده في الجامعة الأرثوذكسية بصفتها زعيمة العالم الأرثوذكسي دينياً وسياسياً²⁶. وبالمقابل، أخذت الشعوب المسيحية الشرقية في آسيا الصغرى واليونان والبلقان تتطلع نحو "الشمال"، إلى قيصرية روسيا، على أنهم "زعماء الدين"²⁷ و"حماة العقيدة"²⁸، ومحاربيها من الحكم الإسلامي، وأصبحوا في نظرها "القيصرية الأرثوذكسيين"²⁹.

2) الحماية الدينية الروسية

منذ أن أخذت روسيا تحاول أن تنتشر "رسالتها" هذه، أي منذ القرن السابع عشر، بعد أن شعرت بتوفر القوة الكافية لديها لحملها، لم تتأخر عن تقديم دعمها المعنوي³⁰ والعسكري لشعوب البلقان³¹، بل وأدخلتها ضمن برنامجها للقضاء على الدولة العثمانية³². وقد أثمرت هذه العلاقة بين الفريقين عن مساعي روسيا لممارسة حمايتها على تلك الشعوب، أو تطلع هذه الشعوب إلى الاستجداد بالقيصر بصفته "الملجأ والحامي" للمسيحيين الخاضعين للحكم العثماني. فتكررت زيارات وفودها إلى موسكو تحقيقاً لهذه الغاية³³. فخلال وجوده على رأس البطريركية الأرثوذكسية في القدس بين عامي 1690 و1707، أمل دوسيثوس (Dositheos) بأن تقوم

روسيا بتحرير الأرثوذكس الخاضعين للحكم العثماني، وأرسل إلى بطرس الأكبر في عام 1691 تقارير كاملة عن النزاع بين الأرثوذكس واللاتين وقرار الحكومة العثمانية جعل الأماكن المقدسة تحت إشراف الآخرين، إضافة إلى خطط حربية. كما حاول وضع نفسه تحت الحماية الروسية وتوريط بطرس الأكبر في حرب مع الدولة العثمانية معتبراً أن انتقال الأماكن المقدسة إلى يد **"الفرنجية (اللاتين) هو إهانة تركية بحق روسيا"**³⁴. وعلى الرغم من عدم نجاح تلك المحاولة آنذاك، إلا أنها أظهرت على الأقل مدى ما فرضته فكرة الجامعة الأرثوذكسية من التزامات سياسية على روسيا تجاه المسائل الدينية في الشرق³⁵. وأثناء حملة بطرس الأكبر على نهر بروت عام 1711، طلب الجبل الأسود وضع نفسه تحت الحماية الروسية³⁶.

يشكل حكم بطرس الأكبر نقطة تحول حاسمة في العلاقات بين روسيا والدولة العثمانية، حين بدأت الدولة الأولى توظف المسائل الدينية وتستخدمها حججاً لتحركاتها العسكرية والسياسية تجاه السلطنة في القرن الثامن عشر. كذلك، تعتبر معاهدة كارلوفيتز 1699 (Karolwitz) نقطة تحول بالنسبة لسياسة روسيا تجاه الشرق، حين ظهرت قوة كبيرة تسعى للتمدد جنوباً و **"تحقيق الظموحات"** الشعبية، التي وجدت صدًى واسعاً تحت حكم بطرس الأكبر. وتكمن أهمية هذه المعاهدة أيضاً في محاولة القيصر أن يكون وسيطاً بين السلطان العثماني ورعاياه من المسيحيين الأرثوذكس. وعلى الرغم من فشله في تلك المحاولة آنذاك، إلا أن صلح القسطنطينية بين الدولتين عام 1700 تضمن بنوداً دينية أكدت على معاهدة عام 1681 الموقعة بينهما، حيث حصل رجال الدين الروس على حرية زيارة القدس وأماكنها المقدسة دون عائق أو ضريبة³⁷.

وفي السنوات التالية وحتى مطلع القرن التاسع عشر، بدأت روسيا توظف الجامعة الأرثوذكسية لأجل مصالحها السياسية تجاه الدولة العثمانية، وذلك بعدما أصبحت تلك الإيديولوجية الدينية - السياسية جزءاً من دبلوماسيتها الخارجية المستندة على الوعي الروسي الديني التقليدي وعلى نظرة شعوب السلطنة من المسيحيين الأرثوذكس إلى "رسالتها". فوضعت خطياً لإثارة هؤلاء في البلقان. وبعدها حرضت أثناء حملتها على نهر بروت (Pruth) عام 1711 الجبل الأسود ضد الدولة العثمانية³⁸، خططت لإحداث انتفاضة عامة في البلقان تشترك فيها اليونان وتؤدي إلى استيلائها هي على بعض ولايات السلطنة في البلقان وفوق كل شيء القسطنطينية والممرات (المشروع الشرقي)³⁹، أو تنصيب قسطنطين، حفيد القيصر كاترين الثانية، ملكاً يونانياً في القسطنطينية، على أن تضم مملكته مناطق اليونان وبلغاريا وتراقيا ومقدونيا (المشروع اليوناني)⁴⁰. وأخيراً، حاكت روسيا مع فرنسا بين عامي 1807 و1808 مشروعاً آخرًا لتقاسم الدولة العثمانية⁴¹. وقد فشل المشروعان الأول والثاني لتعذر تطبيقهما على الأرض، ولأنهما كانا سيدخلان كثيراً من السلاف، الذين تدعي روسيا حمايتهم، تحت حكم النمسا. وأخيراً وليس آخراً، عطل اندلاع الثورة الفرنسية إمكانية تنفيذهما. أما المشروع الثالث، فيعود فشله إلى الخلاف الروسي - الفرنسي حول مسألة لمن تؤول القسطنطينية والممرات. إشارة هنا، إلى أن كل هذه المشاريع لم تكن استجابة لتطلعات شعوب البلقان من الأرثوذكس إلى القومية، بقدر ما كانت مشاريع لخلق مناطق نفوذ لروسيا أو دول تدور في فلكها.

إن نتائج سياسة روسيا الدينية يمكن قراءتها بوضوح في معاهدة كوتشك قينارجة (1774)، حين حصلت تلك الدولة على حق تشييد كنيسة لها في الأستانة تكون ورجال الدين القيمين عليها تحت حماية وزير روسي مفوض في العاصمة العثمانية، الذي أجاز له التدخل في أية مناسبة لدى السلطات العثمانية بالنيابة عن تلك الكنيسة ورهبانها. كما سمح الباب العالي للرعايا

الروس من رجال الدين وعلمان بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين دون عائق⁴². ولقد أدى الخلاف على تفسير المعاهدة (البند 7، 8، 14) بشأن حماية روسيا لرعايا السلطان من الأرثوذكس واعتبار القيصر نفسه المرجع الأول والأخير في هذه المسألة، مقابل رفض عثماني، إلى أزمات متواصلة بين روسيا والدولة العثمانية⁴³.

ومنذ نهاية القرن الثامن عشر، واستناداً إلى تلك المعاهدة، أخذت روسيا تتدخل في كل مناسبة في شؤون الدولة العثمانية، وتعمل على تطبيق حمايتها على الأرثوذكس، تارة بأسلوب الضغط العسكري، وتارة أخرى بأسلوب الضغط الدبلوماسي، وتعمل على توطيد علاقاتها بالكنائس الأرثوذكسية في المشرق⁴⁴.

ومن خلال استغلالها الوضع الديني - السياسي الناشئ عن معاهدة كوتشك فينارجه، وضعت روسيا أهدافها تجاه الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر والتي اتجهت أساساً للتدخل في شؤونها الداخلية وإنهاكها وتجزئتها. ووصلت هذه السياسة، مقرونة بضرورات اقتصادية⁴⁵، إلى ذروتها في ما بعد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر⁴⁶.

وعلى الصعيد الرسمي الدولي، لم تتوان روسيا في كل المناسبات عن تأكيد حقوقها في حماية الأرثوذكس في الدولة العثمانية. فخلال مؤتمر فيينا عام 1815، أعلن قيصر روسيا صراحة أنه الحامي الطبيعي للأرثوذكس في الدولة العثمانية، وأن العوامل الدينية هي التي فرضت عليه الدفاع عن صربيا الثائرة ضد السلطنة⁴⁷، وذلك في غشارة منه إلى الحرب التي خاضتها بلاده عام 1806 - 1812 لدعم صربيا ضد السلطنة تحت شعار "الدم السلافي المظفر المجيد"، الذي يجري في عروق الجنود الروس⁴⁸. وفي هذه الحرب، نظر الصربيون إلى قيصر روسيا ألكسندر الأول على أنه "القيصر السلافي العظيم"، ومحررهم من الحكم العثماني⁴⁹. إلا أن معاهدة بوخارست التي وقعها القيصر مع السلطنة عام 1812 لإنهاء تلك الحرب، أبانت بوضوح أن مصالح روسيا القومية قد تغلبت على فكرة الجامعة الأرثوذكسية، عندما تخلى القيصر نتيجة لتلك المعاهدة عن صربيا واستقلالها في سبيل تهدئة الجبهات مع السلطنة استعداداً لهجوم نابوليون على بلاده. وقد مكنت المعاهدة المذكورة السلطان العثماني من أن يسحق في العام التالي تمرد الصربيين وينهي حلمهم بالاستقلال الذاتي⁵⁰.

وبعد سنوات قليلة على مؤتمر فيينا، مدّ قيصر روسيا يد المساعدة (مضطراً) إلى الثورة اليونانية، مستنداً إلى الحقوق التي حصل عليها تجاه الأرثوذكس في معاهدة كوتشك فينارجه⁵¹ وبموجب معاهدة أدرنة لعام 1829، اعترف الباب العالي باستقلال اليونان ذاتياً، وناجزاً في العام التالي. فقوت تلك المعاهدة إدعاءات روسيا حماية المسيحيين الأرثوذكس في الدولة العثمانية⁵²، ومكنتها عام 1832 من فرض هيمنة على الولايات الدانوبيتين، ملدافيا وولاشيا، استمرت حتى حرب القرم⁵³.

يمكن قراءة سياسة روسيا في الجامعة الأرثوذكسية أيضاً وبوضوح في الجانب الشرقي من السلطة العثمانية، وذلك من خلال ازدياد تدخلها في شؤون سوريا وفلسطين لتحقيق حلمها في سيادة الأرثوذكسية هناك. ففي عام 1833، وأثناء توسع محمد علي باشا في بلاد الشام على حساب السلطنة العثمانية، كان لدى قيصر روسيا نيقولا الأول "رغبة عميقة" في احتلال الأراضي المقدسة، وأن ما منعه من ذلك العقبات التي كان سيواجهها مشروع⁵⁴. كما ناصر روسيا

الأرثوذكس ضد الكاثوليك في فلسطين، وارسلت إلى بلاد الشام عامي 1843 و1844 أول بعثة لدراسة أحوالهم وإمكانية إنشاء مؤسسات تعليمية لهم⁵⁵، وذلك عقب إنشاء "مطرانية القدس الإنجيلية" من قبل بريطانيا وبروسيا عام 1842، وعزم الفاتيكان إرسال مطران للكنيسة اللاتينية في بيت المقدس⁵⁶. وفي عام 1848، أقامت روسيا بعثة دائمة لها في القدس، رداً على وصول فاليرغا (Valerga) بطريرك اللاتين إلى تلك المدينة⁵⁷.

وبعد حرب القرم، وعلى الرغم من أن معاهدة باريس عام 1856 قد ألغت الحماية الدينية لروسيا على الشعوب الأرثوذكسية في السلطنة العثمانية،⁵⁸ ازداد استخدام روسيا للجامعة الأرثوذكسية، على الأقل في المشرق العربي، وحاولت من خلالها استعادة نفوذها في المنطقة بإرسال بعثة كنسية إلى فلسطين عام 1857 وزيادة عدد رعاياها الذين يحجون إلى الأماكن المقدسة هناك⁵⁹. وللتعبير عن حمايتها للعرب الأرثوذكس في سوريا أثناء الحرب الطائفية - الإجتماعية عام 1860، أرسلت سفنها الحربية إلى بيروت، وحاولت دون نجاح إنشاء قائمقامية أرثوذكسية ثلاثة إلى جانب القائمقاميتين المارونية والدرزية اللتين جرى اقتراحهما لجبل لبنان⁶⁰. وتوجت روسيا سياسة الجامعة الأرثوذكسية في المشرق العربي بتأسيسها عام 1882 "الجمعية الفلسطينية الإمبراطورية الأرثوذكسية" (The Imperial Palestinian Orthodox Society)، التي عملت بالتنسيق الكامل مع وزارة الخارجية والسينودس على تدعيم النفوذ الروسي في الشرق⁶¹ وجعلت علاقاتها بالأرثوذكس هناك تتعدى الناحية الدينية - التعليمية⁶² إلى المجالات الاستشراقية والاقتصادية والسياسية، فضلاً عن دعم الحجج الروسي إلى الأراضي المقدسة وإقامة الفنادق والخانات لهم وإنشاء المدارس في بلاد الشام⁶³.

وأثناء ذلك، طالبت جهات روسية بتوحيد كنائس الشرق الأرثوذكسية (القبطية والحبشية) وجعلها تحت زعامة الدولة. وعلى الرغم من فشل تلك المحاولات آنذاك، إلا أن قيصر روسيا ألكسندر الثالث وبعض دوائر السينودس كانا يأملان في أن تتمكن روسيا من خلال هذا المشروع تدعيم نفوذها في المشرق العربي تجاه الكاثوليكية والبروتستانتية وأن تحصل على موطئ قدم في إفريقيا⁶⁴. إلى جانب ذلك، واصلت روسيا قديماً توطيد نفوذها على أديرة جبل أثوس (Mount Athos) في شمال اليونان، حيث بلغ عدد رهبانها على الجبل المذكور 10000 ألف من أصل 13000 ألفاً من مجمل سكان هذا "المجمع الديني"⁶⁵.

3) حرب القرم وانتهاء الحماية الدينية الروسية

باندلاع النزاع بين روسيا وفرنسا مجدداً مطلع الخمسينات من القرن التاسع عشر حول حقوق كل من رجال الدين اليونان واللاتين في الأماكن المقدسة في فلسطين، تكون مسألة تسييس الجامعة الأرثوذكسية من قبل روسيا قد وصلت إلى ذروتها⁶⁶. وكان ترك قيصر روسيا فرنسا تضع الأماكن المقدسة تلك تحت إشرافها مسألة تمس بسمعته بصفته حامي الكنيسة الأرثوذكسية، وهو ما عبر عنه في رسالة له إلى فريديريك وليم الرابع، إمبراطور ألمانيا، حين كتب إليه بعد اندلاع القتال مع الدولة العثمانية يقول، إنه لا يشن الحرب لأجل منافع دنيوية ولا حباً بالفتح، وإنما فقط لأجل الغاية المسيحية⁶⁷. وقد حاول القيصر أن يستغل النزاع في بيت المقدس ليفرض على السلطان معاهدة تقوي من سمعته في العالم الأرثوذكسي، حيث يخضع بموجبها البطريرك اليوناني في الأستانة إليه

مباشرة. كما حاول الحصول من الدولة العثمانية على حق تعيين وعزل أساقفة الكنيسة اليونانية، وأن تُرفع إليه كل شكاوى الكنيسة اليونانية بصفته المرجع الأعلى لها⁶⁸.

وبرفض الباب العالي مطالبها بدعم بريطاني - فرنسي، بدأت روسيا عمليات عسكرية في البلقان واحتلت جيوشها الولاياتين الدانوبيتين، مما أدى بعد قليل إلى اندلاع حرب القرم. وكانت بريطانيا وفرنسا اللتان دخلتا الحرب إلى جانب السلطنة العثمانية تريان وبمساندة مساوية بأنه **"... لا يحق لأية دولة حماية رعايا السلطان"**⁶⁹. ومن الواضح أن هذا الموقف كان موجهاً ضد روسيا وسياستها في الدولة العثمانية. وقد أدت هزيمة روسيا في تلك الحرب وتوقيعها على معاهدة باريس عام 1856 إلى إنهاء وصايتها المطلقة على الرعايا الأرثوذكس في الدولة العثمانية، وبشكل خاص فيما يتعلق بالولاياتين الدانوبيتين، اللتين منحتا الاستقلال الذاتي تحت السيادة العثمانية. كما وعدت روسيا بعدم السعي لإقامة **"علاقات مميزة"** مع الجبل الأسود⁷⁰. أخيراً، قررت معاهدة باريس تحييد البحر الأسود، أي جعله مفتوحاً أمام الملاحة الدولية، وعدم السماح بأن يبقى **"بحيرة روسية"**⁷¹.

إذا كانت روسيا قد خاضت حرب القرم في شكلها الظاهري لأجل مصالح الأرثوذكس في الدولة العثمانية، فإن التطورات الدبلوماسية والسياسية التي سبقت الحرب، دلت على أن دفاعها عن مصالح الأرثوذكس في فلسطين كان فقط سبباً مباشراً لتورطها في تلك الحرب، وإن تضارب مصالحها السياسية والاقتصادية والاستراتيجية مع الدول الكبرى في الدولة العثمانية، وبخاصة مع بريطانيا وفرنسا والنمسا، كانت أسباباً غير مباشرة تتفوق في رأينا على الأسباب المباشرة لاندلاع حرب القرم، وتظهر بوضوح أن تلك الحرب التي خاضتها روسيا دفاعاً عن حقوق الأرثوذكس في فلسطين كانت ذات خلفيات محض غير دينية وتعتبر عن مصالح قومية.

كما هو معروف، فقد اعتمدت روسيا بعد معاهدة أدرنة عام 1829 سياسة ترى أن الإبقاء على الدولة العثمانية ضعيفة مهددة بثورات شعوبها هو أفضل لها من حل المسألة الشرقية، وتنافس الدول الكبرى للإستيلاء على ممتلكاتها⁷²، مما قد يضر بمصالحها القومية. وفي هذا المعنى نفهم معاهدة هنكار أسكله سي، التي جاءت في أعقاب الإنزال الروسي في البوسفور برضى السلطان وجسدت استراتيجية روسيا (المؤقتة) الهادفة إلى إبقاء السلطنة العثمانية جارة ضعيفة على قيد الحياة، بدلاً من رؤية محمد علي يتربع على القسطنطينية والممرات، وذلك بانتظار التحضير لوفاق دولي يمهد لتقاسم ممتلكاتها.

وفي إطار هذه التحضيرات، جاءت اتفاقيتها مع النمسا (أيلول 1833) في "ميونيخ غراتز" (Münchengrätz)⁷³ لتجزئة الدولة العثمانية في المستقبل، ومع بريطانيا أثناء زيارة القيصر نيقولا إلى لندن عام 1844، حين عرض على الحكومة البريطانية تقسيم ممتلكات **"الرجل المريض على البوسفور"**، استناداً مذكورة كان مستشاره نسلرود (Nesselrode) قد عرضها على الحكومة البريطانية سابقاً. وقد تمخض عن زيارة القيصر روسيا إلى بريطانيا اتفاق شفهي دار حول التفاهم بين الدولتين في المستقبل فيما يتعلق بمصير الدولة بالعثمانية، إذا ما تبين استحالة المحافظة عليها. وفيما رأى

الإنكليز أن الدولة العثمانية قد أعيأها الضعف فعلاً وإن هناك أمل في إعطائها دفعة من الصحة والعافية من خلال إصلاحات، عاد قيصر روسيا إلى بلاده وهو مقتنع بأن الدولة العثمانية قد وصلت إلى درجة كبيرة من الإعياء وأن لا مجال لإصلاحها وحن وقت تقسيمها⁷⁴.

وحيثما جدد القيصر اتصالاته بالإنكليز عام 1853 حول موضوع التقسيم⁷⁵، تبين له أن بريطانيا لم تكن في تلك المرحلة على استعداد لتقسيم السلطنة خشية "أن يعجل ذلك بإحداث خطيرة لا تريدها"⁷⁶. وهذا ما جعله يعمل منفرداً على حل المسألة الشرقية، ويصطدم ما بين عامي 1853 و1856، بالدول الكبرى الثلاث التي كانت مصالحها ترتبط بسلامة السلطنة والمحافظة عليها وعدم وقوع ممراتها الاستراتيجية في يد روسيا. وكان وجود الدولة العثمانية "مستقلة" غير مهددة هو ضمان لتجارة الدول الثلاث في السلطنة ومصلحتها الاستراتيجية، وكان القضاء على استقلال تلك الدولة تبعاً للمخططات الروسية يعني القضاء على شريك تجاري مربح لها.

وعلى الرغم من تنافسهما في الشرق الأدنى، فقد توافقت مصالح بريطانيا وفرنسا معاً في عدم تمكين روسيا من أن تستولي على "بوابات منزلها" (البوسفور والدردينيل). وبالنسبة للنمسا، فقد كانت التناقضات بينها وبين روسيا تدور حول الهيمنة التجارية في نهر الدانوب ومصبه وهو ما جعلها تنضم إلى تحالف القرم، خصوصاً بعد احتلال روسيا للولايتين الدانوبيتين (تموز 1853)⁷⁷. وقد وصف ستراتفورد كاننغ (Stratford Canning)، سفير بريطانيا في العاصمة العثمانية آنذاك، أهمية الدولة العثمانية الاقتصادية كسوق لمنتجات بلاده بالقول: "إن انهيار تركيا قد يكون مؤشراً للقضاء على التجارة الإنكليزية"⁷⁸.

بقي مبدأ الجامعة الأرثوذكسية مطروحاً في سياسة روسيا الخارجية حتى نهاية القرن التاسع عشر، على الرغم من تفوق الجامعة السلافية عليه في البلقان منذ منتصف القرن المذكور. ومع ذلك، لم تغب الجامعة الأرثوذكسية أبداً عن الوعي الشعبي - الرسمي الروسي. ففي عام 1895 عرّف جنرال روسي الجامعة الأرثوذكسية بأنها رباط الإخوة الذي يجمع ما بين المسيحيين الأرثوذكس ويجعل الجنود والتمطوعين الروس يسقطون في سبيل الدفاع عنها، وأضاف يقول: "أنا ابن كنيسة قبل أن أكون ابن بلدي. أنا أرثوذكسي يوناني في الدرجة الأولى ومن ثم روسي"⁷⁹. وختم يقول: "إن الروس لا يساؤون شيئاً إذا لم يكونوا وطنيين، ولكنهم قبل أن يكونوا روساً فهم مسيحيون"⁸⁰.

إذا كانت الجامعة الأرثوذكسية قد خدمت المصالح الروسية بشكل مباشر حتى حرب القرم، فكيف تم الانتقال إلى الجامعة السلافية؟ وكيف تمكنت روسيا من توجيهها ضد السلطنة العثمانية؟

1) مرحلة الانتقال من الجامعة الأرثوذكسية إلى الجامعة السلافية

بعد حرب القرم، أولت روسيا العوامل العرقية والقومية دوراً رئيسياً في برنامجها للقضاء على الدولة العثمانية، دون أن يعني ذلك تخليها التام عن العامل الديني (الجامعة الأرثوذكسية)، وذلك بعدما أدركت تطلعات شعوب البلقان نحو القومية. وقد أعطتها هذا مجالاً أوسع لتحركها الدبلوماسي والسياسي والعسكري ضد الدولة العثمانية، إذ كان الرأي العام الأوروبي يعطف على مطالب شعوب البلقان المسيحية في الاستقلال الذاتي أو التام. فتفوقت منذ ذلك الحين رسالة "الجامعة السلافية" على "الجامعة الأرثوذكسية" وأصبحت ذات بُعد أيديولوجي هام في سياسة روسيا تجاه جنوب وجنوب شرق أوروبا⁸¹. وقد بلغت أيديولوجية "الجامعة السلافية" ذروتها في السياسة الروسية الخارجية بمشروع خلق دولة بلغاريا الكبرى عام 1878⁸².

منذ أن بدأت روسيا توظف الجامعة السلافية في سياستها الخارجية ضد الدولة العثمانية، وجدت هذه السياسة استجابة لدى شعوب البلقان من السلاف الأرثوذكس. فبين معاهدة باريس 1856 والحرب الروسية - العثمانية 1877/1878، كان قسم كبير من شعوب البلقان لا يزال يخضع للحكم العثماني، ولم يكن مستقلاً سوى اليونان، في حين كانت الصرب ورومانيا تتمتعان بالاستقلال الذاتي. وأثناء تلك الفترة ازدادت انتفاضات تلك الشعوب ضد الحكم العثماني دون أن تستطيع الإصلاحات العثمانية (العثمنة) أن تحقق طموحاتها أو تصهر معاً طوائف السلطنة الدينية وقومياتها. فقد رفض المسلمون تلك الإصلاحات التي ترافقت مع تكثيف أوروبا إختراقها السياسي - الاقتصادي - الثقافي - العسكري للسلطنة، وذلك خشية تحقيق المسيحيين المحليين المزيد من التفوق نتيجة تطبيق "التنظيمات العثمانية" واستفادتهم من "الإمتيازات"، مما يؤدي إلى إضعاف دورهم المميز في المجتمع كأمة صاحبة السيادة في "دار الإسلام". أما المسيحيون، الذين تقوت اتجاهاتهم "الانفصالية" بفعل شبكة الروابط الاقتصادية والسياسية والثقافية التي أقاموها مع الغرب، وأيضاً بفعل الإصلاحات الداخلية التي شهدتها ملهم خلال الستينات وشملت دساتيرها وعلاقاتها الداخلية، فنظروا إلى التنظيمات العثمانية وبالتالي مساواتهم بالمسلمين، على أنه اعتراف من السلطة العثمانية بأن هؤلاء الآخرين لم يعودوا الأمة صاحبة السيادة في "دار الإسلام"، وإن هذا دليل على ضعف الدولة وتفككها وليس دليل قوة، ويقدم لهم فرصاً أخرى للاستمرار وراء المشاريع "القومية" المدعومة أجنياً للوصول إلى الاستقلال بدلاً من "العثمنة"⁸³. إضافة إلى ذلك، فإن تدخل الدول الكبرى في المسألة الشرقية وبخاصة روسيا والنمسا، كان له دوره الفاعل في اندلاع الثورات بين شعوب السلطنة من المسيحيين، وبخاصة في منطقة البلقان⁸⁴.

وانسجاماً مع هذه الاعتبارات، نمت في منطقة البلقان تيارات عرقية كالجامعة الصربية والجامعة السلافية. وفيما نادى الأولى بتوحيد السلاف الجنوبيين تحت زعامة الصرب دون اعتبار للمذهب، نادى الجامعة السلافية بالعناية أولاً بالثقافة واللغة. وتدرجاً

منذ منتصف القرن التاسع عشر، ازداد الاهتمام بالتاريخ والتقاليد وفوق كل شيء بالمستقبل السياسي⁸⁵. ولقد كان للجامعة السلافية اتجاهاتها المذهبية (الأرثوذكسية) والثقافية والعرقية المعادية للغرب وحضارته والمؤكدة في الوقت نفسه على القيمة الجوهرية للثقافة الروسية تجاه الثقافة الغربية⁸⁶ كضرورة حتمية لضمان "مستقبل العرق البشري"، حيث تكون للأرثوذكسية خاصية مميزة⁸⁷. ولقد لعبت الكنائس البلقانية هنا دوراً كبيراً ومهماً في ربط شعوب شبه الجزيرة بالثقافة الروسية⁸⁸.

2) الجامعة السلافية في الفكر والوعي الروسيين

خلال القرن التاسع عشر كان العديد من المفكرين والأدباء والشعراء والمؤرخين والعسكريين الروس أمثال سيرجي أواروف (Sergei Uwarov 1786 - 1855) وفيودور تيوتشيف (Fyodor Tyuchev 1803- 1873) وميخائيل بوغودين (Mikhail Pogodin 1800-(-1875) وألكسي خوميياكوف (Alexei Chomjakov 1804-1860) وفيدور دوستويفسكي (Fyodor Dostoievski 1821-1881) وإيفان أكساكوف (Ivan Aksakov 1823-1886) والمؤرخ وعالم الطبيعيات نيقولا دانيلفسكي (Nikolas Danilevsky 1822-1865) والصحفي الشهير ميخائيل كاتكوف (Mikhail Katkov 1818 - 1887)، يؤمنون بأن مستقبل أوروبا كلها سوف تحدده روسيا من خلال عرقها السلافي ورفضها الأفكار الغربية والتشديد على حضارتها. ولما كانت الأرثوذكسية هي ماضي روسيا وحاضرها ومستقبلها، وجد أنصار الجامعة السلافية فيها التقاليد الروسية والرابط الذي يوحد الدولة بالمجتمع ومصدر الإلهام للثقافة الروسية ومغزى "رسالة" روسيا⁸⁹. وقد تقوت هذه الأفكار بفعل أربعة عوامل هي:

- 1- بقاء روسيا في منأى عن الثورات التي اجتاحت أوروبا عام 1848، مما أكد للمفكرين الروس صحة استنتاجاتهم بفقدان دول غرب أوروبا شرعيتها وبدور بلادهم المقبل على صعيد القارة الأوروبية،
- 2- حرب القرم التي أبانت لروسيا أن دولاً أوروبا الكبرى لن توافق على أن تكون الجامعة الأرثوذكسية رأس حربة للحضاء على الدولة العثمانية،
- 3- حروب الوحدة التي خاضتها كل من إيطاليا ودويلات ألمانيا وإعادة تنظيم وسط أوروبا على أسس عرقية - لغوية،
- 4- تعاطف الرأي العام الأوروبي مع الإتجاهات القومية لشعوب السلطنة المسيحية.

لقد لفتت كل هذه الأمور انتباه الطبقة الروسية المثقفة إلى القوة السياسية للجامعة السلافية. لكن هذه الاتجاهات، ظلت تمثل وعياً شعبياً ولم تشكل أثناء حكم نيقولا سياسة رسمية للدولة، حيث عمل هذا القيصر على اضطرهاد أنصار الجامعة السلافية وحظر منشوراتها في بلاده، مركزاً على القومية الروسية، معتبراً أن أهدافها الثورية تتناقض مع شرعية حكمه و "إن توحيد كل السلاف سوف يضر بروسيا"⁹⁰.

هذا الوضع لم يستمر طويلاً. فعندما وصل ألكسندر الثاني إلى عرش البلاد عام 1855، تقوت اتجاهات الجامعة السلافية وأصبحت "رسالة" الجامعة السلافية ذات بُعد إيديولوجي هام في سياسة روسيا تجاه البلقان العثماني. ويذكر غولفيتزر أن "ليبرالية"

حكم القيصر المذكور لم تسمح بالدعاية للجامعة السلافية فحسب، بل مهدت لتوطيد علاقات بين كبار موظفي الدولة الروسية والباط الامبراطوري ودوائر الكنيسة، وخصوصاً في السلك الدبلوماسي، مع قيادات حركة الجامعة السلافية⁹¹. فكيف أثرت الجامعة السلافية أيديولوجياً في الوعي الروسي وكيف كان تأثيرها على الدبلوماسية الروسية؟

يتميز الأدب الروسي منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر بتأثره بالأيديولوجية المزدوجة للجامعة الأرثوذكسية والجامعة السلافية. فالأرثوذكسية هي العقيدة المشتركة التي تجمع ما بين روسيا واليونان ورومانيا، في حين أن السلافية هي رباط الدم بين روسيا والصرب والبلغار والجبل الأسود والمقدونيين⁹². ولقد عبّر خوميكوف عن ذلك بقوله " **خارج الأرثوذكسية لا يمكن للسلافي أن يكون سلافياً حقيقياً**"⁹³، وتحدث عن " **النسر الروسي الذي ينشر جناحيه الحاميين على كل السلاف في ألمانيا والنمسا وتركيا**"⁹⁴. كما دعا السلاف إلى " **التضامن الأخوي** (مع روسيا) **يداً بيد وقلباً على قلب**" والابتعاد عن تقليد أوروبا في لغاتها وعاداتها ولباسها⁹⁵. وقد وجد خوميكوف في اندلاع حرب القرم فرصة مناسبة لتحقيق الهدفين الروسيين الرئيسيين (الجامعة السلافية والجامعة الأرثوذكسية) عندما خاطب السلاف قائلاً: " **احملوا السلاح ... أيها الأخوة السلاف من البلغاريين والصربيين والكرواتيين.. وأنهضي أنت يا روسيا وناضلي من أجل الأخوة (السلاف) واضربي بحد السيف، فإنه سيف الله ...**"⁹⁶.

أما أكسكوف، فاعتبر أن " **العالم الشرقي هو العالم الأرثوذكسي السلافي، الذي تمثله روسيا ...**"، وأضاف قائلاً: " **لكي تكون أرثوذكسياً، فمعنى ذلك أن تكون في وحدة روحية مع الكنيسة الشرقية، مع العالم اليوناني - السلافي**"⁹⁷. ورأى إن الجامعة السلافية تتطلب النضال ضد ما تسرب إلى المجتمع الروسي منذ عصر بطرس الأكبر من فكر غربي هدام، وإنقاذ أوروبا الغربية من أفكارها المضرة وأخيراً، تحرير السلاف⁹⁸.

وبدوره تصور الأسقف بورفيري أوسبنسكي (Profiri Uspenski)، الذي ترأس البعثة الروسية إلى بلاد الشام عامي 1843 و1844، عالماً أرثوذكسياً - سلافياً بزعامة بلاده عندما قال: " **إن قدر روسيا منذ الأزل أن تنير آسيا وتوحد كل السلاف. سوف تكون هناك وحدة لكل العروق السلافية مع أرمينيا وسوريا والجزيرة العربية وإثيوبيا، وسوف يمجدون الله جميعاً في سانتا صوفيا**"⁹⁹.

وبعدما لفت ألكسندر بوشكين (Aleksandr Pushkin 1799-1837) الانتباه في أشعاره إلى السلاف الجنوبيين¹⁰⁰، قام بوغودين عام 1838 بوضع أول برنامج سياسي للجامعة السلافية حاثاً حكومته على استغلال " **الجامعة السلافية السياسية أداة لسياستها التوسعية ضد الدول الجرمانية وتركيا**". ففي رسالة له إلى ألكسندر الثاني ولي العرش وقيصر روسيا فيما بعد، كتب يقول: " **إن شعباً من ستين مليوناً ينمو سنوياً بنحو مليون (نسمة)، سوف يصبح مائة مليون عما قريب. ويُضاف إلى هذا الرقم ثلاثين مليوناً من السلاف في الخارج، الذين يشكلون مع الروس كلية روحية من خلال الأصل واللغة رغم الانفصال الجغرافي والسياسي**". وهذه " **الكلية الروحية**"، شكلت برأى

بوغودين قوة كونية عظيمة مما جعله يطرح التساؤل التالي: "أليس مصير أوروبا السياسي والعالم بيدنا؟"¹⁰¹ واعتبر بوغودين أن زمن أوروبا الغربية قد ولى وأن المستقبل هو للسلاف بزعامه بلاده¹⁰².

وفي أعقاب الثورة عام 1848، وضع الشاعر والدبلوماسي الروسي تيوتشيف تصوراته حول مملكة عالمية بزعامه بلاده تكون الوحدة السلافية أساسها¹⁰³. فقال: "تشجعي يا روسيا وانهضي لأجل خدمة المسيح. ألم يحين الوقت لنصب الصليب في بيزنطة؟ إن ما وعدت به روسيا في المهد، وما سعى إليه قياصرة روسيا بإيمان عبر القرون، تاج بيزنطة وصولجانها، لا يمكن انتزاعه منها. إن السلاف ينادون: يا الله، يا أمنا، قدنا الآن كما قادت الشعب المختار في الصحراء... لقد حان الوقت... انهض يا قيصر كل السلاف"¹⁰⁴.

إضافة إلى ذلك، ظهر في تلك الأونة كتابان شعبيان متطرفان من قبل نصيرين كبيرين للجامعة السلافية، وهما الجنرال روتسلاف فادييف (Rotislav Fadeev) بعنوان "رأي في المسألة الشرقية" والآخر لنيقولا دانيلفسكي وعنوانه "روسيا وأوروبا". ويظهر في الكتابين بوضوح الارتباط الحميم ما بين أهداف حركة الجامعة السلافية واستيلاء روسيا على القسطنطينية. وقد عرض فادييف في كتابه مقترحاته لتفعيل صلات روسيا الثقافية مع السلاف خارج حدودها، وذكر أنه مع تطور الوعي القومي في أوروبا، تطورت المسألة الشرقية التقليدية إلى شيء أهم، وهو الجامعة السلافية¹⁰⁵. وأضاف: "إن السلافيين شعب فتى وقوي على عكس الأوروبيين الغربيين المنحطين، وسوف يتمكنون بمساعدة روسيا من أن يحرروا أنفسهم من الهيمنتين النمساوية والتركية ويتوحدوا في فيدرالية كبيرة بقيادة روسيا تكون استانبول عاصمتها"¹⁰⁶. ورأى أن يكون الهدف الرئيسي لبلاده السيطرة على العاصمة العثمانية معتبراً النمسا/هنغاريا عدو بلاده في المسألة الشرقية وليس بريطانيا وفرنسا. فطالب ألا تستثنى النمسا/هنغاريا من هجوم روسيا، لأنها "الغطاء إلى الصندوق التركي"¹⁰⁷، على حد تعبيره. كما تتضح أهمية الأستانة بالنسبة لروسيا من خلال الصراع لأجل بعث العالم السلافي بدعوة دوستويفسكي للاستيلاء عليها، حين قال: "إن روسيا هي المركز الروحي وعقل الشرق، لكن مدينة القسطنطينية هي قلب العالم الشرقي"¹⁰⁸.

أما نيقولا دانيلفسكي، الذي صدر كتابه عام 1871 وأصبح بمثابة "إنجيل الحركة الجامعة السلافية"، فرأى أن على بلاده أن تخوض الصراع ضد الحضارة الغربية وأن تنزع في الوقت نفسه الجماعات السلافية "المغلوبة على أمرها". وقد تصور دانيلفسكي مستقبل البلقان في كونفدرالية سلافية تضم ثماني دول من ضمنها روسيا. وقد اعتبرت هذه الأراء من قبل الطبقة المثقفة في موسكو على أنها "دستور" لمرحلة جديدة ومبدأ لإحياء قومي¹⁰⁹.

لم تسلم أيديولوجية الجامعة السلافية مع ذلك من الخلط بينها وبين "الجامعة الروسية" (Pan Russism). فأتى مؤتمر للإثنية عقد في موسكو عام 1867، صرح البروفسور فلاديمير إيفانوفيش (Vladimir Ivanovich)، أستاذ اللغات السلافية في جامعة موسكو، أمام الوفود البلقانية المشاركة، بأن الجامعة السلافية هي الانتماء إلى العقيدة

الأرثوذكسية والقبول باللغة الروسية¹¹⁰. وعلى الرغم ذلك، لم تستطع الجامعة الروسية أن تستقطب في برنامجها الشعوب السلافية غير الروسية الأصل. فعندما نشر خوميakov عام 1860 "خطاب من موسكو إلى السلاف" شدد فيه على "الجامعة الروسية"، سبب ذلك انزعاج السلاف بسبب لهجته المتطرفة. إضافة إلى ذلك، كانت حركة السلاف النمساويين، التي أملت بتحقيق أهدافها بدعم النمسا/هنغاريا، منافسة للجامعة الروسية¹¹¹.

إذا كان ما ذكرناه حتى الآن يمثل الجانب الأيديولوجي للجامعة السلافية، فكيف جرى تطبيقه على الأرض وكيف وظف الجامعة السلافية لتدمير الدولة العثمانية؟ ومن الذي حمل لواءها من الروس؟

3) الجامعة السلافية في سياسة روسيا البلقانية

لم تبق أيديولوجية الجامعة السلافية طويلاً في مجال التنظير، بل تطورت إلى مرحلة عملانية منذ الأربعينات من القرن التاسع عشر وارتبطت بمؤسسات وجمعيات، وأصبح لحركة الجامعة السلافية صحفها ودورياتها الناطقة باسمها¹¹². كما عُقدت مؤتمرات لغوية (مؤتمر براغ عام 1848)، على اعتبار إن التوحيد الثقافي يسبق التوحيد السياسي¹¹³. وفي عام 1858 تأسست في موسكو "اللجنة الخيرية السلافية" برئاسة أكساكوف وبوغودين لرعاية السلاف البلغار. وقد سمح القيصر لولي عهده بأن يكون راعياً لها وأن تحصل على دعم مالي من العائلة المالكة والحكومة الروسية¹¹⁴. وكانت هذه اللجنة على علاقة حميمة بالكنيسة الروسية والقسم الآسيوي في وزارة الخارجية الروسية، ومن أهدافها: دعم المؤسسات الدينية والتربوية والأدب للسلاف الجنوبيين، تزويد الكنائس الأرثوذكسية السلافية بالكتب ومستلزمات الكنائس، إعطاء منح تعليم لشبان سلاف في معاهد موسكو¹¹⁵. وفي عام 1863 أسست هذه اللجنة فرعاً لها في كييف برئاسة أوسبنسكي¹¹⁶، وفروعاً أخرى بعد ذلك التاريخ في بطرسبرغ (1868) وكييف (1869) وأوديسا (1870)¹¹⁷. وبإقامة مؤتمر حاشد في العاصمة الروسية عام 1867 حضره ممثلون عن كل السلاف، حصلت حركة الجامعة السلافية على زخم كبير. ووعلى الرغم من أن القيصر ألكسندر الثاني لم يكن من أنصار حركة الجامعة السلافية، فقد وجد نفسه في مناخ مفعم بأيديولوجية الجامعة السلافية. فاستقبل الوفود التي شاركت في المؤتمر¹¹⁸ وسمح بإنشاء دائرة تُعنى بشؤون السلاف¹¹⁹.

- دور الدبلوماسية الروسية

إن تتبع برنامج الجامعة السلافية على الأرض يقودنا إلى القسم الآسيوي في وزارة الخارجية الروسية، حيث كان المتنفذون فيه يعملون تحت تأثير أفكار الجامعة السلافية السياسية. ففي عام 1869 تحدث سترماواكوف (Stremouakov)، رئيس القسم المذكور، عن مشروع لتوسيع حدود كل من الصرب والجبل الأسود وإنشاء إمارتين بلغاريتين¹²⁰. وقد شكل هذا القسم والسفارات والقنصليات التابعة له حلقة اتصال مباشرة بين اللجان السلافية في مناطق البلقان، فيما يتعلق بالمراسلات وإرسال الأموال والمنشورات الدعائية¹²¹.

يعتبر نيقولا إغناطييف (Nicholas Ignatiev) من أشد أنصار الجامعة السلافية وفي مقدمة الدبلوماسيين الروس الذين دعموا حركة الجامعة السلافية ووجهوها ضد الدولة العثمانية. وقد اعتبر هذا أن جهود القوى الكبرى للمحافظة على الدولة العثمانية هو نوع من "الخداع" وبمثابة السير وراء "حلم" ¹²². ومن خلال عمله كرئيس للقسم الآسيوي في الخارجية الروسية (1861-1864) ثم كسفير لبلاده في الأستانة (1864-1877)، قدم مع عدد من الدبلوماسيين والقناصل الروس في البلقان ومن ضمنهم ألكسندر نليدوف (Alexander Nelidov)، سكرتير السفارة الروسية في الأستانة آنذاك وفيما بعد سفيرها هناك، ونوفيكوف (Novikov) سفير روسيا في النمسا/هنغاريا ورئيس اللجنة السلافية في فيينا، فضلاً عن البلغاري نايدن غيروف (Naiden Gerov)، قنصل روسيا في بلوفديف (Plovdiv) وكارتسوف (Kartsov)، قنصل روسيا في الصرب، ويونين (Yonin)، قنصل روسيا في الجبل الأسود، وهلفردينغ (Hilferding)، قنصل روسيا في البوسنة، دعماً مادياً ومعنوياً إلى الحركات القومية في البلقان، وكذلك إلى الجمعيات واللجان السلافية المتواجدة في بلاده وفي النمسا/هنغاريا ¹²³. وقد أكد هنري إليوت (Henry Elliot)، سفير بريطانيا في الأستانة، على وجود تلك الشبكة الدبلوماسية الروسية الواسعة المؤيدة لحركة الجامعة السلافية برئاسة إغناطييف، ومسؤولية روسيا عن دعم الثورة في البوسنة والهرسك، التي كان زعماءها يجتمعون في منزل يونين، قنصل روسيا في راغوسا، الذي كان يزودهم بتعليمات إغناطييف ¹²⁴. وقد اعتقد إغناطييف أن ما تتخبط به الإدارة العثمانية من مشكلات مع القومية المسيحية في البلقان فرصة مناسبة لبلاده للعودة إلى مشروع تقسيم الدولة العثمانية ¹²⁵.

وحول موافقة الحكومة الروسية ضمناً على تلك السياسة، يقول أليوت: "إنه من غير المعروف ما هي السياسة التي ستسلكها روسيا، ونحن لا ندرى منذ بداية الأزمة (الشرقية) من الذي يمثل السياسة الروسية. إن ما يقوله القيصر وجورشاكوف هو ما يأمله المرء، ولكن ما يقوم به إغناطييف وأفعال القنصل الروسي في راغوسا (يونين) هي على العكس تماماً." لقد كانت سياسة روسيا الخارجية "غير الرسمية" التي قادها إغناطييف في البلقان هي التي عملت بريطانيا على مجابتهها وليس سياسة جورشاكوف "الرسمية"، حيث كان المستشار الروسي على استعداد للتوصل من سياسة سفيره في العاصمة العثمانية ¹²⁶.

كان إغناطييف على إقناع بأن تنصب دبلوماسية بلاده في البلقان على تحقيق ثلاثة أهداف رئيسية: التخلص من معاهدة 1856 والسيطرة على العاصمة العثمانية والممرات، وأخيراً أن تقوم روسيا باستعمال السلاف "أداة لسياستها" ضد النمسا/هنغاريا والدولة العثمانية ¹²⁷. وفيما تمكنت روسيا في معاهدة لندن (13 أذار 1871) من إلغاء حياض البحر الأسود ¹²⁸، إنصب نشاط إغناطييف التالي على أن تتضافر جهود السلاف الأرثوذكس ضد الدولة العثمانية في عمل مشترك بقيادة بلاده يضمن لها تحقيق الهدف الثالث، الذي يؤدي بدوره إلى السيطرة على الأستانة والممرات. وقد رأى إن على روسيا أن تسيطر على الممرات لضمان أمنها في منطقة البحر الأسود ولأجل توسعها السياسي والاقتصادي.

لقد أحتلت مسألة الاستحواذ على القسطنطينية دوراً بازراراً في مخططات إغنائيف. فدعا أن يتم السيطرة عليها بوسيلتين إثنيتين: سلماً، من خلال ممارسة نفوذ على السلطان العثماني، وهو ما تحقق بين عامي 1871 و1875، أو باستخدام الآلة العسكرية من خلال توجيه الشعوب البلقانية ومعها الأرمن ضد السلطنة¹²⁹. فعرض على جورشاكوف أثناء الحرب البروسية - النمساوية والثورة الكريتيية عام 1866 إقامة حلف من الصرب والجبل الأسود واليونان والبلغار ضد الدولة العثمانية بزعامة الأمير ميشال أوبرنوفيش (Michael Obrenovich)، عاهل الصرب¹³⁰. كما فكر، عندما أندلعت الحرب البروسية - الفرنسية عام 1870/1871، بحل جزئي للمسألة الشرقية من خلال استحداث انتفاضة عربية - أرثوذكسية - سلافية ضد الحكم العثماني. فعرض على إسماعيل باشا، خديوي مصر، أن يقود انتفاضة عربية في مصر والعراق ضد الحكم العثماني تتزامن مع ثورة يقوم بها اليونانيون والرومان والصربيون. وأكد للخديوي: **"إنه عندما يتفجر الوضع (اندلاع الثورة)، فسوف يدرك قيمة الصداقة الروسية"**¹³¹. ورأى أن يحصل الجبل الأسود على الهرسك والصرب على البوسنة، فيما لو سارت الأمور بشكل جيد. وكتب إلى جورشاكوف يطلب إليه أن يدعم القوميات السلافية والتنسيق معها لأجل التعاون المشترك في اللحظة المناسبة. لكن المستشار الروسي رفض كل هذه المقترحات، إذ ظل يتمسك بحل سياسي للمسائل البلقانية. كذلك، فإن إنهاء بروسيا والدوليات الألمانية حربها ضد النمسا عام 1866 وفرنسا عامي 1870/1871 بسرعة خاطفة (Blitzkrieg) وحل المسألة الكريتيية، شكل بحد ذاته عقبة أمام مخططات إغنائيف، حيث لم يتأزم الموقف الدولي إلى الدرجة الذي يتيح معه لبلادها إمكانية حل المسألة الشرقية منفردة¹³².

أما نليدوف، فكان أكثر تطرفاً من إغنائيف، إذ استغل اندلاع الثورة في البلقان وعرض على حكومته عام 1875 حلاً نهائياً للمسألة الشرقية، يقضي باحتلالها للممرات العثمانية في أول مناسبة وأن تُعلن الأستانة مدينة حرة تحت حمايتها. وفيما يتعلق بأجزاء السلطنة الأخرى، رأى أن تستولي فرنسا على سوريا، في حين تكون مصر من نصيب بريطانيا¹³³.

يبرز دور القناصل الروس في تأجيج الانتفاضات البلقانية للقضاء على الحكم العثماني بوضوح من خلال الوثائق الدبلوماسية السرية التي كان يتبادلها القناصل وسفيري روسيا في الدولة العثمانية والنمسا/هنغاريا مع اللجان السلافية وزعماء الحركات القومية البلقانية - هذه الوثائق التي تعود إلى عام 1872 وقعت بيد دبلوماسي عثماني في بطرسبرغ عام 1877، فترجمت ونشرت بالفرنسية والإنكليزية¹³⁴.

تكشف إحدى الوثائق سياسية روسية في مقدونيا وبلغاريا والصرب والبوسنة والهرسك والجبل الأسود بتزويد الثوار بالأسلحة والمنشورات الدعائية، إضافة إلى إرسال العملاء السريين وتمويل الانتفاضات وحركات التحرير. وتؤكد إحدى الوثائق **"...بيان الحكومة القيصرية لن تترك السلاف لمصيرهم تحت أي حال من الأحوال... دون دعم وأنها (الحكومة الروسية) مستعدة كالمسابق لكل التضحيات في سبيل أن تؤمن لها (للشعوب السلافية) المستقبل الذي يستحقه العرق (السلافي)، الذي لنا شرف الإنتماء إليه"**¹³⁵.

كما تكشف وثائق أخرى أن العديد من السفراء والقناصل الروس في الدولة العثمانية، وفي النمسا/هنغاريا، كانوا في الوقت نفسه أعضاء فاعلين في اللجان السلافية¹³⁶. ويُستخلص من إحدى الوثائق على أن أمراء الأقاليم البلقانية اعترفوا بزعامة روسيا. ففي إحدى المناسبات أبلغ أمير الجبل الأسود أحد القناصل الروس في البلقان بأنه **"يعلق كل الآمال على عطف قيصر روسيا العظيم الأب الأقوى والحامي للعائلة السلافية"** في سبيل التخلص من الحكم العثماني¹³⁷. كذلك، تتطرق مراسلات أخرى إلى استعداد الحكومة الروسية في وقت معين لإعلان الحرب على الدولة العثمانية¹³⁸. وتهتم إحداها **"بإنشاء جمعيات سرية"** في البوسنة والهرسك **"يلتزم أعضاؤها بحمل السلاح ضد تركيا عند أول إشارة"**¹³⁹. أما الصرب والجبل الأسود، فتعتبرهما المراسلات الروسية السرية **"قلاعاً متقدمة للسلافية"** لضرب الدولة العثمانية، وترى ضرورة الإهتمام بهما مادياً ومعنوياً¹⁴⁰. وأخيراً، تشير وثيقة إلى تخزين السلاح ومنشورات التحريض على الثورة في الأديرة الروسية على جبل أئوس¹⁴¹.

إن هذه الوثائق التي أوجزنا مضمونها تظهر لنا بوضوح كيف أن أصابع روسيا، على الأقل قنصلها ودبلوماسيها، كانت تحرك السلاف الأرثوذكس لجعل البلقان منطقة ثوران ضد الحكم العثماني، وأنها كانت أيضاً وراء الانتفاضة البلقانية عام 1875. كذلك، يُستنتج منها أن الإصلاحات العثمانية (التنظيمات) في البلقان كانت مستحيلة التنفيذ، في وقت كانت فيه روسيا الرسمية تحرض البلقانيين للانقلاب ضد الحكم العثماني. ويخلص المؤرخ النمساوي بامبرغ إلى القول بأن الإصلاحات العثمانية ومحاوله جذب مسيحيي البلقان إلى "العثمنة" كانت تتعارض مع سياسة روسيا في الاجهاز على الحكم العثماني في أوروبا من خلال تحريض البلقانيين على الثورة عليه. ولهذا - يضيف بامبرغ - عملت روسيا على عرقلة تنفيذ الإصلاحات وجعلها صعبة التنفيذ¹⁴².

- "أسلفة" الكنيسة البلغارية

إن سياسة روسيا في تكوين تيار يصب في مصلحة الجامعة السلافية ويخدم بالتالي أهدافها القومية المتجهة للقضاء على الدولة العثمانية يمكن ملاحظتها من خلال إنشاء الإكسارية البلغارية. فتاريخ بلغاريا تحت الحكم العثماني يتميز بهيمنة رجال الدين اليونانيين على الكنيسة البلغارية والحياة الثقافية في البلاد¹⁴³. ولكن، منذ بداية القرن التاسع عشر، بدأت في بلغاريا نواة حركة وطنية ترفض الهيمنة اليونانية. ففي عام 1866 عزل البلغاريون أساقفتهم اليونانيين وطردوا في العام التالي الأساقفة الجدد الذين أرسلوا إليهم¹⁴⁴. وفي هذه الأثناء، كانت تجري محاولات للإرساليات الكاثوليكية الفرنسية والبولونية لكثافة البلغار وربطهم بالفاتيكان - هذه التطورات جعلت فيلاريت (Filaaret)، متربوليت موسكو، يؤيد إنشاء كنيسة وطنية بلغارية مستقلة عن الكنيسة اليونانية¹⁴⁵.

وفي غضون ذلك، كان إغناطييف يحرك في الآستانة دبلوماسيته في سبيل الحصول على اعتراف عثماني بكنيسة بلغارية مستقلة، وذلك بعدما باءت بالفشل الانتفاضات التي حرض عليها في بلغاريا بين عامي 1866 و1868. ورأى أن "أسلفة"

الكنيسة البلغارية سوف تقوي من تيار الجامعة السلافية وتكون أداة لإضعاف الكنيسة اليونانية والحكم العثماني في البلقان على السواء. وبفضل دبلوماسيته، صدر مرسوم عثماني في 10 آذار 1870 لمصلحة قيام إكسارية بلغارية¹⁴⁶. وقد اعتقد الباب العالي أن إنشاء الإكسارية، سيجعل من الكنيسة الأرثوذكسية ممزقة ويضعف بالتالي من وحدة القوى المسيحية البلقانية الداعية إلى القضاء على حكمه، ويصب في مصلحته نهاية الأمر¹⁴⁷.

وفي 24 أيار 1872 انتُخب الإكسار. وبموجب المرسوم العثماني، اعترف الباب العالي بالإكسارية مؤسسة مستقلة عن البطريركية اليونانية في الأستانة تخضع لسلطة إكسار بلغاري الجنسية¹⁴⁸.

إن قيام الإكسارية البلغارية أدى في الواقع إلى نتائج بعيدة الأثر، سواء في انعكاساتها على الحكم العثماني في بلغاريا، ووحدة الكنيسة الأرثوذكسية والقوى البلقانية فيما بينها، أم في علاقات دول البلقان بروسيا. فبعد قليل، تأكد للباب العالي أن الإكسارية لم تكن مدعاة للشفاق داخل الكنيسة الأرثوذكسية والعالم السلافي فحسب، بل أصبحت أيضاً نواة القومية البلغارية،¹⁴⁹ التي لم تكن تخدم في نهاية الأمر مصالحه.

وبالنسبة لروسيا، فإن وحدة الكنيسة الأرثوذكسية التي كانت نواة سياستها في الجامعة الأرثوذكسية، أصبحت منذ ذلك الحين مسألة مشكوك بأمورها. فبعدما كانت دوماً حامية للكنيسة الأرثوذكسية اليونانية وخاضت لأجلها حرب القرم، لم تعد بعد إنشاء الإكسارية تنسجم في الواقع مع هذا الادعاء. فوقوفها وراء " أسلفة " الكنيسة البلغارية (= استقلالها)، ساهمت في تمزيق وحدة الكنيسة الأرثوذكسية والعالم الأرثوذكسي. فبعد عام 1870، أصبحت المؤسسات الكنسيان اليونانية والبلغارية خصمين عنيدتين ضد بعضهما البعض وتنازعتا على الزعامة في مقدونيا¹⁵⁰. فقيام الإكسارية أوجد حصناً سلافياً أمام النفوذ اليوناني في تلك المنطقة. كذلك، سببت الإكسارية خلافات بين الشعوب السلافية نفسها، إذ لم تستطع أن تستقطب الصربيين في مقدونيا. وعندما احتجت الصرب أمام روسيا على قيام الإكسارية، أفهمها الروس أن الإكسارية هي مسألة سلافية عامة تهم كل السلاف وليس البلغار وحدهم¹⁵¹.

لقد كان قيام الإكسارية يخدم في الواقع سياسة روسيا القومية في إضعاف الكنيسة اليونانية،¹⁵² التي رأتها أداة للباب العالي والدول الكبرى¹⁵³، وكذلك، في جعل الكنيسة الروسية الوريث لتلك المؤسسة العريقة. ولهذا السبب، قامت السياسة الروسية على طرد اليونانيين من الأديرة والأراضي التي امتلكوها على جبل أثوس. كما قطعت الحكومة الروسية مساعداتها المالية عن الأديرة والمدارس اليونانية. وأخيراً، وفي إطار سياستها الهجومية ضد الكنيسة اليونانية، حاولت أن تضرب النفوذ اليوناني في أهم مراكزه في فلسطين، حين حرضت العرب ضد الإكليروس اليوناني¹⁵⁴ وقامت بتشجيع استخدام اللغة العربية في الكنائس والمدارس لإضعاف النفوذ اليوناني هناك. وتوجت سياستها هذه بدعم العرب الأرثوذكس للحصول على مراكز السلطة في كنيسة أنطاكية¹⁵⁵ ثم " تعريب " هذه البطريركية، مما ساعد على إيقاظ مشاعر "العروبة" عند الأرثوذكس السوريين¹⁵⁶ "في مواجهة الإنتماء العثماني المتمثل بالثقافة الهلينية العثمانية التي حكمت العالم

المشروع السلافي الكبير 1875 - 1878

- الثورة في البلقان 1875 - 1876

في صيف عام 1875 اندلعت الثورة في البوسنة والهرسك وكانت أسبابها سياسة روسيا المتمثلة في الجامعة السلافية والمسألة الزراعية (= استغلال الفلاحين من قبل الإقطاعيين المسيحيي الأصل)¹⁵⁸. وعلى إثر محاولة لتحصيل الضرائب، اندلعت الثورة في الهرسك في تموز 1875 وامتدت في آب إلى البوسنة لتنتقل في العام التالي إلى بلغاريا. هذه الأحداث التي تسمى عادة بـ "الأزمة الشرقية" حددت التوازن الأوروبي بسبب تضارب مصالح الدول الكبرى فيها.

يمكن تتبع دبلوماسية روسيا في الأزمة الشرقية (1875-1878) من خلال اتجاهين إثنين: الأول مثله جورشاكوف، ويؤيد حلاً للمسألة الشرقية بالوفاق مع دول "عصبة الأباطرة الثلاثة"، وبخاصة النمسا/هنغاريا، مما يسمح لروسيا تحقيق مصالحها البلقانية دون أية تعقيدات سياسية أو عسكرية¹⁵⁹. ومقابل هذا الاتجاه، كان هناك أنصار الجامعة السلافية بزعامة إغنايف وبعض القياديين العسكريين والإداريين الذين يرفضون حلاً سلمياً للأزمة ويرونها فرصة مناسبة لإحداث انتفاضة عامة في تركيا الأوروبية تؤدي إلى توحيد العالم السلافي بزعامة روسيا¹⁶⁰. وقد رفض أنصار هذا التيار أي تعاون لبلادهم مع الدول الأوروبية وبخاصة النمسا/هنغاريا وبريطانيا¹⁶¹ معتبرين إن "الجرمانية" وبخاصة في النمسا/هنغاريا هي عدو لبلادهم وعقبة أساسية في وجه المشروع السلافي، حيث تسعى هذه الدولة للتمدد نحو بحر إيجه وفرض هيمنتها على شعوب سلافية، وإن على روسيا أن تخوض الحرب ضدها عاجلاً أم آجلاً، لأن الطريق إلى القسطنطينية يمر عبر فيينا، وبدون هزيمة النمسا/هنغاريا لا يمكن توحيد السلاف. ورأى أصحاب هذا التيار إن على روسيا أن تستولي على غاليسيا وبسارابيا السلافيتين من النمسا-هنغاريا ورومانيا، لأنهما تفصلانها عن بقية سلاف الجنوب. ومتى تحقق هذا الهدف، يمكن توحيد السلاف جميعاً في كونفدرالية عسكرية ودبلوماسية واقتصادية بزعامة روسيا تكون بموجبها الأستانة ومنطقة الممرات مدينة حرة تحت سيادتها¹⁶².

إن موقف أنصار حركة الجامعة السلافية من النمسا/هنغاريا كان السبب الرئيسي للخلاف بين إغنايف وجورشاكوف¹⁶³. وحتى اندلاع الحرب الروسية - العثمانية في نيسان 1877، استطاع جورشاكوف أن يطبع السياسة الروسية بدبلوماسية التي كانت تنظر إلى المسألة الشرقية كجزء مكمل للدبلوماسية الأوروبية (= عصبة الأباطرة الثلاثة). ولكن بعد ذلك التاريخ، غلب تيار الجامعة السلافية على السياسة الروسية. وباختصار، لقد كانت الجامعة السلافية بالنسبة لإغنايف وتياره "تعبيراً عن قومية روسية توسعية"، على حد قول ماينغر، لتفكيك النمسا/هنغاريا والدولة العثمانية¹⁶⁴.

- الطريق إلى الحرب: طبول الجامعة السلافية

بعد وصول أنصار الجامعة السلافية إلى الحكم في الصرب بزعامة ريزتتش (Ristic) الموالي لروسيا في صيف 1876، أخذ إغناطييف يضغط على الصرب لإعلان الحرب على الدولة العثمانية¹⁶⁵. وقد تكلفت جهوده وتلك التي بذلتها اللجان السلافية في بطرسبورغ وفيينا في إعلانها الحرب على الدولة العثمانية في 30 حزيران 1876. ويبدو أن الصرب وثقت بوعود أنصار حركة الجامعة السلافية بأن روسيا الرسمية لن تنزكها فريسة بيد العثمانيين، بل سوف تضطر إلى دخول الحرب¹⁶⁶. هذه القناعات، ازدادت لدى الصربيين عندما أرسلت اللجان السلافية متطوعين روس إلى ساحات القتال الصربية ضد العثمانيين بقيادة الجنرال تشرناييف (Cherniaev)¹⁶⁷. وقد كتب مندوب جريدة رومانيا في بلغراد معلقاً على اندلاع القتال بين الصربيين والعثمانيين بالقول: **"إنها حرب حتى الموت بين السلاف الجنوبيين والأتراك... إنها حرب العرق والدين. ومهما تذكر المحاضر الرسمية (الصربية)، فإن روسيا هي التي أعطت الدفع لتلك الحركة وعملت على دعمها باستمرار... واليوم، إن فكرة عرش عليه أمير روسي يوحد السلاف الجنوبيين في البلقان، هي التعبير الصامت والأمل الأخير لكل هذه الشعوب"**

168

وبعد دخول الصرب الحرب وانضمام الجبل الأسود إليها بعد أيام قليلة، ازداد ضغط أنصار الجامعة السلافية على الرأي العام الروسي لأجل حمل "الراية السلافية" ضد الدولة العثمانية، وفي مقدمهم قادة سياسيون كبار وجرالات في الجيش، أمثال ولي العهد نيقولا وفادييف والوزيران نيقولا ميلجوتين (Milijutin) وشقيقه وزير الحربية والجنرال سكوبوليف، الذي قاد الزحف الروسي نحو الأستانة¹⁶⁹. وقد حاول هؤلاء جرّ القيصر إلى مواقف راديكالية مؤيدة للجامعة السلافية وبرنامجهما. وعندما حضر جورشاكوف إلى برلين في أيار 1876 لبحث الأزمة الشرقية حاملاً معه برنامجاً لتقسيم الدولة العثمانية، كان تحت تأثير الصراع السلافي - العثماني الجديد في البلقان.¹⁷⁰

وقد لاحظ الشاعر الروسي تيوتشيف "أن روسيا كلها كانت متحدة في حماسة واحدة لنجدة أخوتها السلاف والمساهمة في تحريرهم"¹⁷¹. ويذكر ستيد، الذي نشر مذكرات أولغا نوفيكوف ومراسلاتها، إن الجامعة السلافية تحولت إلى أيديولوجية شعبية داخل روسيا، حيث **"... أيقظت لدى الشعب الروسي حماساً وطنياً ودينيّاً"** ضد العثمانيين المسلمين، الذين كانوا **"أكثر الأعداء شعبية"**¹⁷² بالنسبة للروس. ويذكر مؤرخون آخرون أن قسماً كبيراً من الروس اعتبر تلك الحرب حربهم وإن الفلاحين رأوا فيها **"نضالاً لأجل الصليب"**، فيما عمت الكنائس مشاعر **"الحرب الصليبية المقدسة"** وسادت البلاد **"حالة شبه عسكرية"**¹⁷³. كما وأنشأت اللجان الخيرية السلافية في موسكو مراكز للدعم وجمعت الأموال والتبرعات لهذه الغاية، وزود الصربيون بسلاح روسي¹⁷⁴. وقد تجمع المتطوعون في موسكو ومن ضمنهم مئات الضباط وصف الضباط استعداداً للانتقال إلى الصرب، ووصل تعدادهم إلى عشرة آلاف تحت سمع السلطات الروسية وبصرها¹⁷⁵. وقد اعتُبر هؤلاء طلائع الجيش الروسي الزاحف إلى الجبهة¹⁷⁶، مما ولد لدى القيصر اقتناعاً بأن شعبه يريد **"تخليص أخوته السلاف من قيود العبودية المذلة"**¹⁷⁷. وعندما سقط أول روسي في معارك الصربيين ضد العثمانيين، وهو الأمير العقيد

نيقولا كيرييف (Nicholas Kireeff)، سبب هذا الحدث شعوراً دينياً - وطنياً بين الطبقات الشعبية والثقافة داخل البلاد، حيث اعتُبرت "شهادته" دفاعاً عن عقيدته وإخوته السلاف

178

- الجامعة السلافية وألكسندر الثاني والحرب الروسية - العثمانية

إن جرّ روسيا الرسمية إلى الحرب ضد الدولة العثمانية كان هدفاً رئيسياً لأنصار الجامعة السلافية. فبعد اندلاع الحرب بين الصرب والدولة العثمانية، أبلغ بوروشوفتشيكوف (Porochovtschikov)، أحد أعضاء لجان الدعم السلافية في موسكو، القيصر ألكسندر بأن "كل روسيا المؤمنة تريد الحرب" (ضد الدولة العثمانية)¹⁷⁹. وفي آذار 1877، انتقد أكساكوف في كلمة له بعنف دبلوماسية حكومته السلمية في حل المسألة الشرقية. وقال: "إن الدم الروسي الذي سُكب على أرض المعارك في الصرب لم يُثار له بعد ... إن الدوائر العليا في المجتمع الروسي فاسدة خلقياً، ولكن إرادة الشعب قوية كفاية كي تحطم قيود الخيانة"¹⁸⁰ وفي هذا المعنى، كتب إلى الجنرال تشرناييف يقول: "أنا أنوي من خلال إرسالك، وفيما بعد إرسال المتطوعين (إلى الصرب) أن أسبب مشاركة روسيا الرسمية (في الحرب)، ولم أؤمن أبداً في إمكانية ترك اللجان السلافية تحل المسألة بنفسها"¹⁸¹.

وبدوره، صرح الجنرال تشرناييف علناً بالقول: "إننا (حركة الجامعة السلافية) نحارب لأجل الفكرة السلافية المقدسة ... إننا نحارب لأجل الحرية والصليب الأرثوذكسي والحضارة. إن روسيا تقف خلفنا. إذا قلب الحظ وتخلي عنا، فسوف تُروى هذه الأرض المقدسة بالدماء الغالية للشعب الروسي الشقيق، وسوف تدوي هذه التلال والوديان لآخر مرة بقعقة السلاح وهدير المدافع. وإذا غصنا بالدماء حتى اكتانفنا وعجزنا عن فتح الأبواب إلى الحرية والحضارة، فإن يد روسيا الحديدية سوف تفتحها وسوف نصرخ عالياً مع على جثث اعدائنا وسط هتافات شعوب أوروبا الحرة و(نقول): لتعش الحرية لتعش الفكرة السلافية"¹⁸².

من جهته، دعا دوستوفسكي بلاده أن تأخذ على عاتقها توحيد السلاف وحل المسألة الشرقية " ... لكي تعيش (روسيا) حياة سامية وتثير العالم بفكرة عظيمة منزهة ومجردة، لكي تخلق كياناً كبيراً وقوياً يقوم على التضامن الأخوي للعرق ... " وأضاف يقول: " هذا هو هدف روسيا وهذا هو مكسبها"¹⁸³. وعلى عكس ذلك، رأى دانيلفسكي أن هذا الهدف لا يتحقق إلا بعد الاستيلاء على القسطنطينية "أم الأرثوذكسية ومحور العالم الشرقي" وتصبح روسيا¹⁸⁴.

وفي تشرين الثاني 1876 صرّح القيصر ألكسندر الثاني أمام دوائر عسكرية روسية ذات انتماء للجامعة السلافية عن عزمه على خوض الحرب بمفرده ضد الدولة العثمانية إذا ما تأكد له عدم إمكانية حل المسألة سلماً¹⁸⁵. وفي انزلاق آخر نحو الحرب نتيجة هزيمة الصرب في أيلول/تشرين الأول 1876 وخشية حدوث اضطرابات داخل البلاد، أعلن القيصر في 13 تشرين الثاني عن نصف تعبئة لجيشه وتحريك ست وحدات منه إلى الجبهة بقيادة شقيقه الغراندوق نيقولا، أحد كبار أنصار الجامعة السلافية¹⁸⁶.

وكان تعيين الغراندوق نيقولا قائداً عاماً للجيش الروسي، وهو الذي عين على الفور إغنايف مستشاراً له، ونوفيكوف، سفير روسيا في فيينا ورئيس اللجنة السلافية في العاصمة النمساوية، رئيساً للقسم السياسي في جيشه، أعطى هذان التعيينان الحرب الروسية - العثمانية المقبلة طابعاً سلافياً¹⁸⁷.

وفي هذه الأثناء فشل اجتماع لممثلي الدول الكبرى في الأستانة (كانون الأول 1876 - كانون الثاني 1877) واجتماع آخر في لندن (31 آذار 1877) للوصول إلى تفاهم دولي حول حلّ الأزمة¹⁸⁸. كما فشلت روسيا في تكوين " جبهة صليبية" من الدول الكبرى ضد السلطنة العثمانية، وخصوصاً من بريطانيا¹⁸⁹. لكنها تمكنت بالمقابل من القيام بتحضيرات سياسية وعسكرية ضرورية استعداداً للحرب المقبلة، وتمثلت باتفاقيتين مع النمسا/هنغاريا في 8 تموز 1876 (رايشس شتاد - Reichsstadtsabkommen) و 15 كانون الثاني 1877 حول تقاسم النفوذ في البلقان وضمنان حيادها في الحرب المقبلة¹⁹⁰. وفي المعاهدة الثانية اشترطت النمسا/هنغاريا عدم قيام دولة سلافية كبيرة في البلقان¹⁹¹. كما عقدت مع رومانيا اتفاقية في 16 نيسان 1877 سمحت لها تحريك جيوشها عبر أراضيها إلى ساحات القتال مع الدولة العثمانية. وقد تعهدت رومانيا بالاشتراك في الحرب ضد الدولة العثمانية مقابل تعهد روسيا المحافظة على سيادتها واستقلالها الوطني¹⁹².

وفي 24 نيسان اندلعت الحرب الروسية - العثمانية. وبعد إخفاق استمر عدة شهور، تمكن الجيش الروسي من اختراق الدفاعات العثمانية والزحف إلى صوفيا وأدرنة. وقد عبّر القيصر ألكسندر الثاني عن الدوافع القومية والأرثوذكسية السلافية التي دفعته للذهاب إلى الحرب. فخاطب في حزيران البلغار، الذين أصبحوا بعد هزيمة الصرب هدفاً رئيسياً لسياسة الجامعة السلافية الروسية¹⁹³ بالقول: "يا مسيحيي بلغاريا، إنكم تمررون في فترة حاسمة. لقد حانت ساعة الخلاص من الطغيان الإسلامي... تكتلوا تحت الراية الروسية... أطيعوا السلطات الروسية واتبعوا تعليماتها بإخلاص... ففيها تجدون قوتكم وأمنكم"¹⁹⁴.

لقي تصريح القيصر صدى إيجابياً من قبل أنصار الجامعة السلافية. فكتبت صحيفة "النوفي فريما" (Nouve Wremja) تقول: "دعونا نسعى للوصول إلى الأستانة وسوف نجد هناك المكان المشرف المرغوب فيه من قبل الجميع"¹⁹⁵، فيما قال الجنرال الروسي ميخائيل سكوبوليف (Mikhail Skobelev) الزاحف بقواته من أدرنة إلى إستانبول مطلع عام 1878: " لتكن مشيئة الله بأن نكون عما قريب في القسطنطينية". ودعا إلى إقامة اتحاد سلافي على النموذج الألماني تكون روسيا زعيمته إسوة بالاتحاد الألماني الذي تنزعمه بروسيا¹⁹⁶. أما أكساكوف، فتوقع "حقبة جديدة" للعالم السلافي¹⁹⁷. لكنه كان أكثر واقعية من صديقه سكوبوليف، إذ أدرك عن حق أن هناك صعاب جمة تعترض تنفيذ مشروع الاتحاد السلافي، فرد عليه محذراً تلك الصعاب على النحو الآتي:¹⁹⁸.

1- "إن الجامعة السلافية تتطلب اعتناق عقيدة واحدة (الأرثوذكسية) من قبل كل العناصر السلافية، وإن الكاثوليكية في بوهيميا وبولونيا سوف تكون عنصراً

- غريباً معادياً في المجتمع السلافي الأرثوذكسي، مما سيعيق انصهار هذا المجتمع في إطار قومي روسي،
- 2- ضرورة أن يسبق هذه الفيدرالية تخلي الأمم السلافية عن خصائصها الفردية والانصهار في قومية أكثر قوة واتحاداً وصلابة، وهي القومية الروسية،
- 3- التعارض بين الليبرالية الغربية التي أصابت بعدواها قسماً كبيراً من الأعراق السلافية مع "روح الأرثوذكسية الروسية".

- صلح سان ستيفانو وتحقيق الأهداف السلافية

بعد هزيمة العثمانيين وزحف الجيش الروسي على مقربة من الأستانة، أجبر العثمانيون على طلب الهدنة من الروس. وبعد سلسلة من المفاوضات الشاقة والطويلة بين روسيا والدولة العثمانية، توصلت الدولتان إلى صلح سان ستيفانو (3 آذار 1878)¹⁹⁹، الذي صاغ إغنايف كل بنوده²⁰⁰ وكان تعبيراً عن طموحات حركة الجامعة السلافية. وقد وصفه أندراسي (Andrassy)، وزير خارجية النمسا/هنغاريا، بأنه "خطاب أرثوذكسي - سلافي"²⁰¹. وبموجب هذا "الصلح"، شكّلت دولة بلغارية كبيرة ضمت بلغاريا وروماليا الشرقية ومقدونيا. كما تخلى الباب العالي لروسيا عن بعض ممتلكاته الآسيوية. أما الصرب والجبل الأسود، فحصلوا على مكاسب إقليمية على حساب "ألبانيا". إضافة إلى ذلك، أعلن استقلال رومانيا والصرب والجبل الأسود استقلالاً تاماً. وأخيراً، ضمت روسيا إليها جنوب بسارابيا التابعة لرومانيا²⁰².

يتميز صلح سان ستيفانو بأنه لم يمثل المصالح السلافية والأرثوذكسية العامة لدول البلقان، بل المصالح القومية الروسية، على الرغم من الدعوات إلى الجامعة السلافية التي كانت قد صدرت عن اللجان السلافية وعدد من المسؤولين الروس. لقد فرضت الاعتبارات العسكرية والاستراتيجية على روسيا خلق دولة سلافية هي بلغاريا الكبرى والتضحية لأجل ذلك بمصالحها مع دول بلقانية أخرى والمجازفة بأزمة دولية. فخلق دولة سلافية تسير في ركابها كان سيمكنها من تأمين قاعدة للمرور عبرها إلى المتوسط والإشراف على الأستانة²⁰³.

ومن ناحية أخرى، أدى خلق دولة بلغاريا الكبرى إلى تدهور علاقات روسيا مع دول البلقان. فالصرب، رأت في هذه الخطوة تهديداً حقيقياً لها وتجاهلاً صارخاً لمصالحها القومية في البوسنة والهرسك. وعندما احتج وفد صربي على ذلك، أبلغه نيقولا غيرز (Nicholas Giers)، رئيس القسم الآسيوي في الخارجية الروسية، أن المصالح الروسية تأتي في المقام الأول وتليها البلغارية، أما المصالح الصربية فتأتي بعدهما²⁰⁴.

ومن جهة رومانيا، فقد شعرت بضرر لتغيير ميزان القوى في البلقان لمصلحة بلغاريا الكبرى، وانتزاع روسيا منها منطقة بسارابيا. كذلك، لحق الضرر لمصالح اليونان من جراء قيام دولة سلافية جديدة صنيعة روسياً، وأيضاً، بسبب خسارتها مقدونيا وسالونيك، اللتين ضُمتا إلى بلغاريا²⁰⁵. وقد كان لرفض اليونان دولة سلافية له أيضاً شقه الإيديولوجي - السياسي، وهو ما عبّر عنه أحد الأساقفة اليونانيين عندما تحدث عن

الصراع القائم آنذاك بين " الجامعة الهلينية" و " الجامعة السلافية " ومخاوف الأولى من الثانية إلى درجة قبولها بالحكم الإسلامي العثماني بقوله: "إن السلاف هم أعداؤنا الطبيعيون. علينا أن ندعم الآن الأتراك. وطالما تركيا موجودة، فسوف نكون في أمان"²⁰⁶.

وبدورها، عبرت الأميرة أولغا نوفيكوف، " سفيرة " روسيا غير الرسمية في العاصمة البريطانية، عن خيبة أملها من جراء المعاهدة التي نتج عنها التضحية بالبوسنة والهرسك لإرضاء النمسا - هنغاريا وسلب بسارابيا من رومانيا وازدياد العداء بين بلادها واليونان. وفيما يتعلق بالدولة العثمانية، رأت أن معاهدة سان ستيفانو " تركت البرابرة في روما الجديدة (القسطنطينية) والكفرة في آيا صوفيا"²⁰⁷.

وبالرجوع إلى خريطة البلقان الجديدة التي خلقتها معاهدة سان ستيفانو، يمكن القول أنها مثلت ذروة النفوذ الروسي في البلقان وأعلى مراحل أهداف حركة الجامعة السلافية في القرن التاسع عشر. فبخلقها دولة بلغاريا الكبرى، تكون روسيا قد أوجدت دولة أرثوذكسية - سلافية تسير في فلكها تفوق فؤادها الأضرار الناتجة عن التضحية بمصالح دول بلقانية أرثوذكسية أو سلافية أخرى. أما النمسا/هنغاريا، فخسرت من جراء الوضع الجديد الكثير من نفوذها في البلقان.

- ردود الفعل على معاهدة سان ستيفانو وتحجيم المشروع السلافي (= معاهدة برلين)

خيبت معاهدة سان ستيفانو آمال الدول الأرثوذكسية والأرثوذكسية السلافية، وأوجدت في الوقت نفسه معارضة دولية بسبب تضرر مصالح الدول الكبرى لتغيير التوازن في منطقة البلقان، وفي مقدمة هذه الدول بريطانيا والنمسا/هنغاريا²⁰⁸. ولتجنب حرب أوروبية، عُقد في برلين ما بين حزيران وتموز عام 1878 مؤتمر دولي تميّز بأنه ألقى الكثير من مشاريع الجامعة السلافية التي نفذتها روسيا في البلقان. وبموجب المعاهدة التي انبثقت عن المؤتمر (معاهدة برلين)، اضطرت روسيا إلى التخلي عن مشروع بلغاريا الكبرى. كما أعلن الاستقلال الذاتي لكل من بلغاريا وروميا الشرقية وأعيدت مقدونيا إلى السلطان العثماني، في حين حصلت الصرب ورومانيا والجبل الأسود على الاستقلال التام. ولتعويضها عن خسارتها لمنطقة جنوب بسارابيا، حصلت رومانيا على ديروجه. وأخيراً، وُضعت البوسنة والهرسك في عهد النمسا/هنغاريا²⁰⁹. وعلى الرغم من هذا لتحجيم الدولي لمعاهدة سان ستيفانو، اعتبرت دوائر الخارجية الروسية أن معاهدة برلين لم تحرم روسيا من مكاسبها، حيث تحقق استقلال الدول البلقانية بمباركة دولية²¹⁰.

لم تكن معاهدة برلين دون تأثير على الرأي العام الروسي. وعندما احتجت عليها أولغا نوفيكوف أمام جورشاكوف بسبب التخلي عن بلغاريا الكبرى، أبلغها هذا الأخير أن روسيا تأتي في المقام الأول وبعد ذلك السلاف²¹¹. وبدوره، انتقد الجنرال سكوبوليف بشدة سياسة حكومته واعتبرها خيانة بحق السلاف، وكتب يقول: " بعدما رويننا بدمائنا لمدة عامين هذه الأرض (بلغاريا) ... تأتي الدبلوماسية الملعونة وتقول، لا. سوف يتحرر فقط نصفهم (البلغار) ويترك القسم الأكبر منهم مرة أخرى تحت رحمة الأتراك "²¹².

وفي الوقت نفسه، اعتبرت اللجان السلافية معاهدة برلين تحطيماً لبرنامجها، وإن التخلي عن بلغاريا الكبرى هو خسارة قومية لروسيا ونفوذها في الأستانة والممرات. كذلك، خابت آمال الجماعات المؤيدة للجامعة السلافية في روسيا لتخلي الدولة عن مناطق أرثوذكسية - سلافية لمصلحة النمسا/هنغاريا²¹³. بالإضافة إلى ذلك، وضع قسم من الرأي العام الروسي علامة استفهام كبيرة على إيديولوجية الجامعة السلافية بوجهها المعادي للغرب²¹⁴. لكن انتقادات اللجان السلافية لسياسة الحكومة الروسية ودبلوماسيتها أثناء مؤتمر برلين، جعلت تلك الحكومة تقرر حل اللجان السلافية ونفي أكسكوف²¹⁵. وهناك عامل آخر ساهم في تراجع نفوذ الجامعة السلافية في روسيا وهو اعتلاء ألكسندر الثالث العرش عام 1881. فقد أظهر القيصر الجديد تحفظاً تجاه الجامعة السلافية وبرنامجها. وبدلاً من ذلك، ركز على فكرة الدولة الروسية والكنيسة الروسية²¹⁶. وعلى عكس أكثرية روسية مثقفة، لم يكن القيصر الجديد يريد أن يحكم فيدرالية سلافية يكون قسم كبير من سكانها السلاف أقل حماسة لروسيا. باختصار، كان يريد أن يمارس حكمه على كل روسيا ويقوي سلطاته على ولاياته البعيدة، ولذا لم يكن على استعداد لأن يضحى بروسيا لأجل السلاف البلقانيين²¹⁷.

إن سياسة روسيا خلال الأزمة البلقانية والتي انطلقت من مصالح قومية بحثة (معاهدة سان ستيفانو)، ومقررات مؤتمر برلين وتخليها عن دور قيادي في البلقان لقاء نفوذ دائم في بلغاريا، كانت لها آثارها البعيدة المدى على نفوذها في البلقان. فتخليها عن رومانيا واليونان والصرب والبوسنة والهرسك وتوتر علاقاتها مع تلك الدول، مكن النمسا/هنغاريا من ملء الفراغ في المنطقة ومن إعادة توطيد نفوذها في البلقان. ففي السنوات التالية على معاهدة برلين وبتحديد أدق، بعد إعادة تجديد "عصبة الأباطرة الثلاثة" في حزيران 1881 وتحديد مناطق النفوذ بين الروسي والنمساوي/الهنغاري في البلقان، وجدت الصرب نفسها بزعامة الأمير ميلان، الذي أصبح ملكاً بعد عام 1881، مضطرة إلى عقد اتفاقيتين اقتصاديتين وسياسيتين مع النمسا/هنغاريا²¹⁸. كما قامت الصرب بعزل ميتروبوليت البلاد ميهايلو (Mihailo)، بسبب وقوعه تحت النفوذ الروسي²¹⁹. أما البوسنة والهرسك اللتان وُضعتا في عهد النمسا/هنغاريا بموجب معاهدة برلين، فقد ضمتها إليها الدولة الألمانية عام 1908. ولحقت رومانيا واليونان بالصرب وعقدتا مع النمسا/هنغاريا معاهدات سياسية مماثلة²²⁰. أما بلغاريا، فقد رفضت أن تكون ألعوبة روسيا. وقد قام "المحافظون" فيها باستبدال ميتروبوليت صوفيا المؤيد للروس بآخر معارض لهم²²¹. وعندما تحققت الوحدة بين بلغاريا وروميا الشرقية عام 1885، شكلت هذه عقبة حقيقية في وجه النفوذ الروسي في الممرات²²². وفي ذلك العام، بدأ وكأن سياسة روسيا البلقانية التي ارتكزت طوال القرون الماضية على الجامعتين الأرثوذكسية والسلافية قد فشلت في إطارها الإيديولوجي والسياسي العملائي.

استنتاج

فيما كانت الجامعة الأرثوذكسية والجامعة السلافية عاملين رئيسيين لتدعيم النفوذ الروسي في الدولة العثمانية، كذلك، كانتا أيضاً أدوات سياسة روسيا الخارجية لتفكيك الدولة العثمانية والاستحواذ على عاصمتها وممراتها.

قبل حرب القرم، لم تلعب الجامعة السلافية دوراً مهماً كأداة لتجزئة الدولة العثمانية، إذ كانت أيديولوجية "الجامعة الأرثوذكسية" وبرنامجها كافيين وفعالين لاستقطاب الشعوب الأرثوذكسية والسلافية الأرثوذكسية في الدولة العثمانية. ففي مرحلة ما قبل تلك الحرب، كان بإمكان "الصليب الأرثوذكسي الروسي" أن يستقطب كل أرثوذكس الدولة العثمانية دون اعتبار للعرق أو الثقافة خلف السياسة الروسية التي اتجهت للقضاء على الدولة العثمانية. ولقد عبرت الحرب بوضوح إلى أي مدى كانت روسيا تستخدم الجامعة الأرثوذكسية لتحقيق مصالحها القومية. فتحت شعار الدفاع عن حقوق الأرثوذكس في الأماكن المقدسة في فلسطين، كان هناك مشروع القيصرونيقولا لتقسيم الدولة العثمانية والاستحواذ على عاصمتها وممراتها. وعندما هُزمت روسيا في حرب القرم، بوقوف الدول الكبرى المنافسة لها في وجه سياستها الدينية - السياسية ونمو المشاعر القومية لدى شعوب البلقان، اضطرت إلى تعديل تكتيكها إزاء السلطنة، لا أهدافها الإستراتيجية. وهناك عامل آخر مهم ساهم في هذا التحول، وهو التناقضات بين الشعوب الأرثوذكسية نفسها، وبينها وبين الشعوب السلافية، مما جعل الإبقاء على سياسة واحدة تركز على أيديولوجية الجامعة الأرثوذكسية مستحيلاً.

إن تحول روسيا عن سياسة الجامعة الأرثوذكسية إلى الجامعة السلافية يظهر بوضوح في إنشاء الإكسارية البلغارية عام 1870. صحيح أن هذه المؤسسة ارتكزت إلى العقيدة الأرثوذكسية، لكنها بنيتها كانت على أسس عرقية سلافية. ومهما كانت المبررات البلغارية للإنفصال عن الكنيسة اليونانية ومساعي الكنيسة الروسية لوراثة هذه المؤسسة العريقة في الدولة العثمانية، فإن ظهور أرثوذكسية سلافية إنسجم مع مخططات روسيا في الدولة العثمانية. فوقوفها، دبلوماسياً وكنسياً، وراء مشروع أسلفة الكنيسة البلغارية وإستحصال إغنائيف بمناوراته على مرسوم إنشائها، يدلان على أن ما حصل كان أولى الخطوات العملية لسياسة روسية قائمة على الجامعة السلافية.

كان الانتقال إلى برنامج الجامعة السلافية يعطي روسيا مجالات أوسع لتحركاتها إزاء شعوب البلقان تحت شعار "نصرة القوميات المسيحية" وبالتالي الحصول على عطف الرأي العام الأوروبي. لكن هذا البرنامج الجديد إصطدم بمصالح الدول الكبرى والدول البلقانية الأرثوذكسية والسلافية على السواء، قبل أن يشكل تهديداً للسيادة العثمانية. فخلق دولة بلغاريا الكبرى عام 1878 مستندة إلى أرثوذكسية سلافية، جعل روسيا تتخلى عن مصالح شعوب أرثوذكسية وسلافية كاليونان والرومان والصربيين وتجري وراء مصالح قومية. وتدل الاتفاقيتان اللتان عقدهما مع النمسا/هنغاريا عامي 1876 و1877 وتخليها عن مصالح حليفاتها الصرب في البوسنة والهرسك بوضوح على أن الاعتبارات القومية هي التي حددت مسار الإستراتيجية الروسية في البلقان. وفي هذه المعنى، نفهم

ضمها مقدونيا الى دولة بلغاريا الكبرى دون اعتبار للمصالح اليونانية في تلك المنطقة وانتزاعها بسارابيا من رومانيا مخلة بتعهداتها السابقة لها.

إن ما حرك الدول الكبرى ضد بنود معاهدة سان ستيفانو هو المشروع السلافي الروسي، الذي اعتبرته إخلالاً بالتوازن في البلقان. وقد أدى خلق دولة بلغاريا الكبرى إلى ازدياد التناقضات بين النمسا/هنغاريا وروسيا - هذه التناقضات التي حاول بسمارك بفراسته الدبلوماسية التخفيف من حدتها على الدوام. ومن جهة بريطانيا، فهي لم تكن تخشى دبلوماسية جورشاكوف " الرسمية " في المسألة البلقانية، بقدر ما تهددت مصالحها بسياسة إغنايف " غير الرسمية "، التي قامت على تحقيق أهداف الجامعة السلافية. ولكن، عندما تحقق مشروع بلغاريا الكبرى مع منفذ لها على إيجيه، لم تعد القضية بالنسبة لبريطانيا مسألة دبلوماسيين روس يعملون على تحقيق برنامج سلافي، وإنما سياسة الحكومة الروسية بكاملها في المسألة الشرقية ومخططاتها تجاه الآستانة والممرات. وبسبب الموقف الدولي الرافض لتغيير موازين القوى في البلقان، اضطرت روسيا في مؤتمر برلين إلى التضحية ببلغاريا الكبرى، وهو ما لم يغفره لها أنصار حركة الجامعة السلافية.

قد يختلف القيصر ألكسندر الثاني عن سلفه نيقولا في أنه كان أكثر " ليبرالية " تجاه برنامج حركة الجامعة السلافية. ومع أنه لم يكن من أنصارها، إلا أن شخصيات متنفذة في بلاطه وجيشه وفي دوائر الكنيسة الروسية، وحتى شقيقه، كانت تدفع به في اتجاه مؤيد لبرنامج الجامعة السلافية. ألم يكن الأدباء والمفكرين الروس هم الذين رسخوا فكرة بعث العالم السلافي بزعامة بلادهم وحولوها، مع الجامعة الأرثوذكسية، إلى أيديولوجية شعبية شغلت الناس بكل فئاتهم وشرائحهم الاجتماعية؟ وماذا عن القناصل الروس في البلقان بزعامة إغنايف، ألم يعملوا على تطبيق هذه الإيديولوجيا على الأرض ليجعلوا منها رأس حربة للقضاء على السلطنة؟ وفي أثناء زحفه على القسطنطينية، كان الجنرال سكوبوليف مدفوعاً بفكرة الجامعة السلافية ويحلم بفدرالية بلقانية بزعامة روسيا تكون القسطنطينية عاصمتها؟ لقد كان حلم كل روسي عبر القرون، سواء أكان من أنصار الجامعة الأرثوذكسية أو الجامعة السلافية، في أن يرى الصليب الأرثوذكسي الروسي ينتصب مجدداً على آيا صوفيا. أليست مظاهرات التأييد للحرب ضد الدولة العثمانية التي شهدتها شوارع موسكو والمدن الروسية وحمل الصليب وقرع أجراس الكنائس والتطوع للزود عن " العرق السلافي " دليلاً على وجود الجامعتين الأرثوذكسية والسلافية في الوعي الشعبي الروسي؟ وعندما تخيل أوسبنسكي عالماً يجمع ما بين أرثوذكس آسيا الصغرى وإفريقيا (الحبشة) وأرثوذكس البلقان بزعامة بلاده، ألم يكن ذلك انعكاساً لتلك الأيديولوجية المركبة للجامعتين الأرثوذكسية والسلافية في الوعي الشعبي الروسي؟

وحتى ولو لم يكن القيصر نفسه من أنصار حركة الجامعة السلافية، ألم يكن وزير حربيته وجزالاته ودوائر في بلاطه والكنيسة من دفع به إلى " الحرب السلافية " وأطاح بدبلوماسية جورشاكوف التي قامت على حل المسألة الشرقية بوفاق أوروبي (= مع النمسا/هنغاريا). وبماذا يمكننا أن نفسر خلق دولة بلغاريا الكبرى والتضحية بمصالح دول بلقانية أرثوذكسية وسلافية كانت روسيا تدعي على الدوام أنها حماية لها، أكثر من أنه

مشروع قومي روسي بغلاف سلافي؟ إن تغليب روسيا مصالحها القومية على الإعتبارات الأرثوذكسية والسلافية، أفقدها بعد حربها ضد الدولة العثمانية عام 1877/1878 الكثير من قواعدها الأيديولوجية التي إرتكزت عليها سياستها البلقانية خلال القرون الماضية.

الحواشي

1 حول مشاريع روسيا لتقسيم الدولة العثمانية، أنظر:

T.G. Djuwara, Cent projets de partage de la Turquie (1281 - 1913), Paris 1914;

² Sinno, Pan- Slawismus, op. cit. p. 539 وترجمتها بالعربية، الأرثوذكسية والسلافية وأثرهما في السياسة الروسية تجاه الدولة العثمانية، في: *حواشيات* (بيروت)، 3(1984-1985)، ص 12.

³ ورد مصطلح " الجامعة الأرثوذكسية " في المقالات التي كتبها كارل ماركس تبعاً في الحيفة اللندنية " التايمز " عام 1855:

Karl Marx, The Eastern Question. A reprinted of Letters Written 1853 - 1856 أنظر: Dealing with the Events of the Crimean War, London 1969.

⁴ Olga Novikoff, "The Eastern Question. II. The religious Basis of Russian Policy", in: *The Nineteenth Century*, 38(1895), p. 1001.

⁵ Theodor Schieder, „Europa im Zetialter der Nationalstaaten und europäische Weltpolitik bis zum 1. Weltkrieg (1870-1918)“, in: Theodor Schieder ed. *Handbuch der europäischen Geschichte*, vol. 6, Stuttgart 1973, pp.. 118f.

⁶ عبد الرؤوف سنو، "العلاقات الروسية- العثمانية (1687-1878) سياسة الاندفاع نحو المياه الدافئة"، في: *تاريخ العرب والعالم*، 73/74(1984) ص 50 - 51.

⁷ أنظر المادتين الثامنة والتاسعة فيما يقال عنها " وصية بطرس الأكبر "، حيث طالب القيصر شعبه بالزحف جنوباً نحو البحر الأسود والاستيلاء على استانبول "لأن من يحكم على استانبول"، كما جاء في المادة التاسعة من وصيته "، يمكنه حقيقة أن يحكم على الدنيا بأسرها"، نقلاً عن: وصية بطرس الأكبر قيصر روسيا، في: *المنار*، ج 24، 5(1903)، ص 949. وقارن بـ:

Alfred Fischel, Der Panslawismus bis zum Weltkrieg, Stuttgart/Berlin 1919, p. 169.

⁸ المرجع السابق ص 50-52

⁹ أنظر نص المعاهدة في إميل خوري/عادل إسماعيل، السياسة الدولية في الشرق العربي، ج 2 بيروت. 196 ص 277-279.

¹⁰ عبد الرؤوف سنو، "العلاقات الروسية - العثمانية 1687-1878)، مسألة البحر الأسود والأزمة البلقانية 1856-1878"، في: *تاريخ العرب والعالم*، 79/80(1985) ص 19.

¹¹ سنو، سياسة الاندفاع نحو المياه الدافئة، مرجع سابق ص 53-55

¹² عبد الرؤوف سنو، "العلاقات الروسية - العثمانية (1687-1878) حرب القرم 1853-1856" في: *تاريخ العرب والعالم*، 77/78(1985) ص 25-44.

¹³ Natalia A. Narotchnitskaia, „The Post-Byzantine Area in the Focus of Spiritual and Geopolitical Rivalry at the Brink of the XXI Century“. Draft Paper presented at the conference "*Russia and the Orthodox of the East*", Oct. 19-21, 1997; pp. 4f.

¹⁴ نقلاً عن: Theofanis George Stavrou, Russian Interests in Palestine 1882-1914, Thessaloniki 1963, pp. 8-9.

وقارن بـ: Nevil Forbes/Arnold J. Toynbee/D. Mitrany/D.C. Hogarth, The Balkans. A History Bulgaria.Roumania.Turkey, Oxford 1915, p. 175.

¹⁵ Stavrou, p. 18 والحاشية في الصفحة نفسها.

¹⁶ حسن علي، العثمانيون والروس، دمشق 1982 ص 11-12، 40-43.

Fischer Weltgeschichte, Bd. 31, *Russland*, Frankfurt a.M. 1976, pp. 42-44.

¹⁷ Stavrou, p. 8.

¹⁸ Natalia A. Narotchnitskaia, op cit., p. 3.

¹⁹ Stavrou, pp. 8, 11, 14.

²⁰ Hopwood, p. 78.

²¹ نقلاً عن: Carl Ritter von Sax, Geschichte des machterfalls der Türkei bis Ende des 19. Jahrhunderts und die Phasen der "orientalischen Frage" bis auf die Gegenwart, Wien 1908, p. 114.

أما الشاعر تيوتشيف، فكان المروج لفكرة " الصليب على آيا صوفيا" والتي رأى أن تنجز بمساعدة بلاده، أنظر:

Stavrou, p. 25, no. 1.

²² Stavrou, p. 25, no. 1.

من أشهر الذين عبروا عن هذه الرأى، دوستويفسكي (Dostoievsky)، وبشكل خاص في مقالته " من جديد حول موضوع وجوب أن تكون القسطنطينية لنا عاجلاً أم آجلاً"، نقلاً عن:

Stavrou, p. 25, no.1.

²³ Stavrou, p. 18.

²⁴ سهيل فرح، "صورة القدس في الوعي الديني الروسي (العصر الحديث)"، في: *روسيا وأرثوذكس الشرق*، منشورات جامعة البلمند 1998، ص 39-42.

²⁵ المرجع السابق، ص 41.

²⁶ Maximilian Fliegenschmidt, Deutschlands Orientpolitik im ersten Reichsjahrzehnt 1870-1880, Teil I., Berlin 1913, p. 126.

Alfred Fischel, Der Panslawismus, p. 168.

²⁸ نقلاً عن: L.S. Stavrianos, The Balkan since 1453, N.Y./1958, p. 151;

وقارن بـ: Fliegenschmidt, op. Cit., p. 125f.

²⁹ Hopwood, p. 78.

³⁰ كان هذا الدعم المعنوي عبارة عن ارسال المعلمين والكتب واللوازم الدينية وتبرعات لأجل بناء أماكن العبادة، أنظر:

Fischel, op. cit., p. 168.

Edgar Hösch, Geschichte der Balkanländer, Stuttgart/Berlin

/Köln/Mainz, 1968, p. 102; Sax, op., cit., p. 85f.

³² Stavrianos, p.179.

³³ Stavrou, pp. 11, 14.

من أشهر بعثات الكنائس الشرقية تلك التي قام بها بطريرك أنطاكية مكاريوس ابن الزعيم عامي 1652 و 1666. حول هذا الموضوع، أنظر، Carsten Walbiner, Some Remarks on the Biography of Macarius Ibn

Az-Za'im "روسيا وأرثوذكس الشرق"، مرجع سبق ذكره، ص 99 – 114.

³⁴ نقلاً عن: Stavrou, p. 13

³⁵ Derek Hopwood, The Russian Presence in Syria and Palestine 1843-1914, Oxford 1969, . 11.

³⁶ William Smith Murray, The Making of the Balkan States, London 1910, p. 50.

- 37 Stavrou, pp.. 19-20.
- 38 المرجع السابق، ص 20 الحاشية في الصفحة نفسها.
- 39 Edward Creasy, History of the Ottoman Turks, 1.ed. London 1878, repro. Beirut 1961, pp.. 372 375; Djuwara, op. Cit.,pp. 269-271, 279; Albert Sorel, La question d'Orient au XVIII siècle, le partage de la Pologne et le traité de Kainardji, Paris 1889, pp. 165-166.
- 40 وكان هذا المشروع يقوم على تعاون روسي - نمساوي ضد السلطنة ويتيح للدولة الثانية التوسع في البلقان لناعية الغرب. حول إعداد كاترين الثانية حفيدها لهذا المنصب الكبير أنظر،
- W. Eton, A Survey of the Turkish Empire, 2.ed. , London 1972, pp. 431, 432ff.; Djuwara, p. 279.
- وتضمن المشروع اليوناني تقسيماً لممتلكات السلطنة الآسيوية أيضاً، أنظر: Norman E. Sorel, Russia and the Mediterranean 1797-1807, Chicago/London 1970, p. 11;
- 41 Creasy, p. 486; Djuwara, p. 347.
- وعندما طرحت مسألة استحواد روسيا على القسطنطينية رفضها نابوليون وعلق بالقول:
- „Constantionple! Constantinople! never! for it is the empire of the world“**, quoted from William Miller, The Ottoman Empire and Its Successors 1801-1927, London 1934, p. 39.
- وقارن بـ: الدولة العثمانية والدول الأوروبية من اول القرن التاسع عشر الى سنة 1913، في: الهلال 5(1914)، ص 330.
- 42 Christophios Alethes, Die Lage der Christen in der Türkei und das russische Protectorat, Berlin 1854 . ويعالج هذا الكتاب معاهدة كوتشك فينارجه وآثارها على العلاقات الروسية - العثمانية حتى اندلاع حرب القرم.
- 43 يرى زاكس ص 321 و327 أن ادعاءات روسيا بشأن حماية رعايا السلطان من الأرثوذكس لا أساس لها من الصحة. فروسيا حصلت بموجب تلك المعاهدة على حق التدخل لصالح الكنيسة اليونانية التي نصت المادة الرابعة على إنشائها، وليس الرعايا الأرثوذكس العثمانيين.
- 44 Hopwood, pp. 3, 11; Stavrianos, p. 192.
- 45 حول هذه الاعتبارات الاقتصادية، دراستي "حرب القرم"، مرجع سابق، ص 27 – 29.
- 46 Stavrou, p. 23.
- 47 Stavrianos, pp. 227f.
- 48 Qouted from Fischel, pp. 173f.
- 49 Fischel, pp.. 169-170
- 50 علي حسون، العثمانيون والبلقان، ط2، بيروت/دمشق 1986، ص 192.
- 51 Alethes, pp.. 55ff.
- 52 Hopwood, p.. 6.
- 53 حصلت الولايتان في عام 1832 على "القانون الأساسي" الذي كان من صنع روسي. وقد اقترح الطونت كيسليف (Kiselev) الذي وضع هذا القانون، أن تضم روسيا الولايتين إليها. انظر: M.S. Anderson, The Eastern Question 1774-1923, New York 1966, p.. 150.
- 54 Hopwood, p.7.
- 55 Hopwood, pp. 35-45.
- 56 انظر الفصل الأول من كتابي: المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين 1841-1901، بيروت 1987، ص 23-50، 189-190.
- 57 Nicolai Lissovoy, The Russian Religious Mission to the Holy Land: History and Spiritual Heritage. بحث مقدم الى ندوة "روسيا وأرثوذكس الشرق"، جامعة البلمند 19 - 22 تشرين الأول 1997، ص 4-6.
- 58 حول حرب القرم وتأثيرها في تحول روسيا إلى سياسة الجامعة السلافية، أنظر الصفحات التالية.
- 59 Stavrou, pp. 40-41.
- 60 لم يكتب النجاح لهذا المشروع، إذ تقرر جعل جبل لبنان متصرفية مستقلة ذاتياً. راجع: Hopwood, p. 68.

⁶¹ Stavrou, pp. 119-122 ، حيث يتحدث المؤلف عن إتفاق بين الجمعية المذكورة ووزارة الخارجية الروسية يقضي بإطلاعها على تقارير وتعليمات الجمعية إلى وكلائها، وذلك عبر قنصلياتها وسفارتها في القدس والعاصمة العثمانية كذلك، كان السينودس الرسي يطلع على نشاطات الجمعية ويقدم أمينها العام تقريراً سنوياً عنها إلى القيصر.

⁶² سعاد سليم، "مشكلة اللغة في المدارس الروسية في الشرق في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين"، في: "روسيا وارثوذكس الشرق" جامعة البلند 1998، ص 115- 132. وقارن ب:

Lissovoy, op. cit., pp. 13-14.

⁶³ سعاد سليم، مرجع سابق، ص 118- 120.

⁶⁴ نشير في هذا الصدد إلى تقارير أوسينسكي حول توحيد الكنيستين المصرية والحبشية مع الكنيسة الروسية ورحلة أشينوف (Ashinov) إلى الحبشة عام 1888، أنظر:

Stavrou, p. 118f., no. 1, pp. 118-120.

⁶⁵ seph Lammeyer, Das franösische Protektorat über die Christen im Orient, historisch, rechtlich und politisch gewürdigt, Borna/Leipzig 1919, p. 91.

⁶⁶ حول الحماية الدينية الأوروبية على الأماكن المقدسة في فلسطين والنزاع الروسي-الفرنسي أنظر دراستي:

Verdy du Vernois, Die Frage der Heiligen St?tten Pal?stinas, Berlin 1901, pp. 24, 59-62; H.Temperley, England and the Near East. The Crimea, London 1964, p. 286
⁶⁷ Stavrou, p. 39.

⁶⁸ لتفاصيل وافية حول هذا الموضوع، راجع: عبدالرؤوف سنو، العلاقات الروسية - العثمانية - حرب القرم، ص 31 وما بعد.

⁶⁹ نقلاً عن: Felix , Geschichte der orientalischen Angelegenheit im Zeitraum des Pariser und des Berliner Friedens, Berlin 1892, p. 113f.

⁷⁰ Murray, op. cit., p. 55.

⁷¹ انظر، عبدالرؤوف سنو، "العلاقات الروسية - العثمانية (1867 - 1878)، حرب القرم"، ص 40- 41.

⁷² عبدالرؤوف سنو، "العلاقات الروسية - العثمانية (1687 - 1878)، سياسة الاندفاع نحو المياه الدافئة"، ص 55؛ المؤلف نفسه، "العلاقات الروسية - العثمانية (1687 - 1878)، روسيا ومشاريع تقسيم الدولة العثمانية"، في: **تاريخ العرب والعالم، 76/75 (1985)**، ص 42- 43

⁷³ وهي اتفاقية سرية ألزمت روسيا نفسها بالاتفاق التام مع النمسا في كل ما يتعلق بمصير الدولة العثمانية، أنظر:

J.C.Hurewitz, The Middle East and North Africa in World Politics, vol. I European Expansion, 1535-1914, New Haven/ London 1975, pp. 254-255.

⁷⁴ Charles Swallow, The Sick Man of Europe. Ottoman Empire to Turkish Republic London 1923; Vernon John Puryear, England, Russia and the Straits 1789-1923, 1931, repr. Hamden/Connecticut 1965, pp. 46, 48-49, 51, Question 1844-1856, 1.ed. 53, 62-65.

⁷⁵ عرض القيصر على البريطانيين مشروعاً يقضي بجعل الأستانة مدينة حرة وباستقلال الولاياتين الدانوبييتين مع الصرب وبلغاريا وجعلهم تحت حمايته، أنظر: Fischel, p. 363.

⁷⁶ عبدالرؤوف سنو، العلاقات الروسية - العثمانية، حرب القرم، مرجع سابق، ص 30.

⁷⁷ عبدالرؤوف سنو، العلاقات الروسية - العثمانية، حرب القرم ص 28.

⁷⁸ Walter Bußmann, „Europa von der Französischen Revolution zu den nationalstaatlichen Bewegungen des 19. Jahrhunderts“, in: Theodor Schieder ed. Handbuch der Europäischen Geschichte, Bd. 5, Stuttgart 1981, p. 53; Puryear, op. cit., p. 127.

⁷⁹ Novikoff, op. cit., p. 1001.

⁸⁰ نقلاً عن المرجع السابق ص 1001.

⁸¹ راجع دراستي الأرثوذكسية والسلافية، مرجع سابق.

Charles Jelavich, *Tsarist Russia and Balkan Nationalism. Russian Influence in the Internal Affairs of Bulgaria and Serbia, 1879-1886*, Berkely/Los Angeles 1962, p. 10. 82

83 حول هذه الإشكالية أنظر، عبد الرؤوف سنو، "تطور الاتجاهات الإسلامية في الدولة العثمانية." من التنظيمات حتى نهاية عصر السلطان عبد الحميد الثاني"، في: *المنهاج* 4 (1996) ص 125-135.

84 Kemal H. Karpat, "Millet and Nationality: The Roots of the Incongruity of Nation and State in the Post Ottoman Era", in: Benjamin Braude/Bernard Lewis ed. ***Christians and Jews in the Ottoman Empire***, vol.II, ***The Arabic-Speaking Lands***, New York/London 1982, p. 144; Winfried Baumgart, *Vom Europäischen Konzert zum Völkerbund. Friedenbeschlüsse und Friedenssicherung von Wien bis Versailles*, Darmstadt 1974, p. 26f.

85 Hans Kohn, *Pan Slavism. Its History and Ideology*, Indiana 1953, p. 5f.; Anderson, p. 169; Stavrianos, p. 397f.

86 Kohn, op. cit., p. 170; Fischel, p. 190.

87 Qouted from Stavrou, p. 39.

88 المرجع السابق، ص 117.

89 Nicolas V. Riasanovsky, *Russia and the West in the Slavophiles, Teaching of Cambridge/Massachusetts 1925*, pp64ff.

وقارن ب: Novikoff, p. 1003.

90 Fischel, p. 178, 186, 367.

91 Gollwitzer, p. 45.

92 Kohn, p. 131f.

93 نقلاً عن: Riasanovsky, p. 200 وقارن ب Kohn, p. 138

94 Gollwitzer, p. 44.

95 Fischel, pp. 177, 369.

96 نقلاً عن: Fischel, p. 367.

97 Hopwood, p. 77f.

98 Fischel, pp. 190-191.

99 Hopwood, p. 7.

100 Heinz Gollwitzer, *Europe in the Age of Imperialism 1880-1914*, London 1969, 44.

101 نقلاً عن: Fischel, op. cit., p. 181.

102 المرجع السابق، ص 181-182.

103 Gollwitzer, p. 44.

104 نقلاً عن المرجع السابق ص 367.

105 Langer, op. cit., p. 66.

106 نقلاً عن: Stavrianos, op. cit., p. 398.

107 في عام 1848 ألح الأمير باسكيفيتش (Paskievich) على القيصر نيقولا أن يبدأ الحرب ضد الدولة العثمانية بالهجوم

أولاً على النمسا. وقد استخدم عبارة "الطريق إلى القسطنطينية تمر عبر فيينا"، نقلاً عن: Fischel p. 400.

وحول آراء فادييف، أنظر بالمرجع نفسه، ص 400-405.

108 نقلاً عن: Gollwitzer, p. 48.

109 انظر تفاصيل وافية عن هذا المشروع في: Fischel pp. 395-399.

110 Kohn, p. 142.

111 Gollwitzer, p. 46.

112 كصحيفة موسكفيتيانين (Mostvitjanin) عام 1841، و Sbornik Slawjanskij عام 1875 أنظر:

Fischel pp. 191, 394.

- Thomas A., Ignatiev and the Establishment of the Bulgarian Exarchate 1864-1872, Madi-son 1970, p. 56. 113
- Fischel, p. 368f. 114
- Fischel, p. 368. 115
- Barbara Jelavich, History of the Balkans. Eighteenth and Nineteenth Centurie, vol. I, Cambridge, p. 338; B.H. Sumner, Russia and the Balkans, 1870-1880, Oxford 1937, pp111f; Hopwood, p. 79. 116
- Fischel, p. 394. 117
- William L. Langer, European Alliances and Alignments 1871-1890, New York, 66; 1966, p. Gollwitzer, p. 45. 118
- Fischel, p. 381. 119
- Langer, p. 67. 120
- Meininger, pp. 57-58. 121
- Meininger, op. cit., p. 193. 122
- حول دور الدبلوماسيين الروس في الجامعة السلافية أنظر: 123
- Bamberg, op. cit., pp. 430-443; Meininger, op. cit., pp. 55-56.
- وقارن بـ : Fischel p. 406. 124
- Langer, p. 69. 125
- Fischel, p. 407. 126
- G. D. Clayton, Britain and the Eastern Question. Missolonghi to Gallipoli, London 1971, p. 127.
- Sumner, Ignatiev, I, pp. 342-343; Fischel, p. 410. 127
- عبد الرؤوف سنو، "العلاقات الروسية - العثمانية (1687 - 1878)، مسألة البحر الأسود والأزمة البلقانية (1856-1878)"، في: *تاريخ العرب والعالم* 80/79 (1985)، ص 3-5. 128
- Sumner, Ignatiev, I, p. 343. 129
- Stanford J. Shaw/Ezel Kural Shaw, History of the Ottoman Empire, vol.II: Reform, Revolution, and Republic: The Rise of Modern Turkey, Cambridge ect. 1977, p148f.; Sumner, Ignatiev, I, pp. 348-350; Fischel, p. 408. 130
- Edgar Whitaker, Russia's Work in Turkey: A Revelation. From French *Les Responsibilités* of G. Giacometti, transl. by Edgar Whitaker, Istanbul 1877, pp. 133-137. 131
- Sumner, Ignatiev at Constantinople, I, pp. 346, 348-351; Shaw, op. cit. vol.II, p. 148f. 132
- Hopwood, op. cit. p81f. 133
- أنظر المرجع في حاشية 69. 134
- Giacometti, *Les Responsibilités*, op. cit. Doc. no. 24, Central Committee at St. Petersburg to the Russian Consul al Salonic, Nov. 14/26, 1872, pp. 79ff.; Doc. no. 38, Central Committee at Vienna, dated St. Petersburg 9/12 Aug. 1872, pp. 102-103. 135
- المرجع السابق ص 2 وما بعد. 136
- المرجع السابق، وثيقة رقم 48 137
- Letter from His Highness Monseigneur **** to His Imperial Highness *, dated Cettigné, 10/22 Dec. 1872. p129.

- 138 المرجع السابق، وثيقة رقم 11، Russian Consul at Scutari to the Committee at Vienna, dated 8/20 Aug. 1872, p. 60.
- 139 المرجع السابق وثيقة رقم 18، Central Committee to the Committee at Vienna, dated St. Petersburg, 2/14 Sep. 187, pp. 69-71.
- 140 المرجع السابق، وثيقة رقم 6، Stramukov, chief of the Asiatic Department, to Novikov, St. Petersburg, 8/20 Dec., 1872, pp. 41ff.
- 141 المرجع السابق، وثيقة رقم 24، Central Committee at St. Petersburg to the Russian Consul at Salonic, Nov. 14/26 Nov., 1872, pp. 79ff.
- 142 Bamberg, op. cit. p. 443.
- 143 Wesley M. Gewehr, *The Rise of Nationalism in the Balkans, 1800-1930*, N.Y. 1931, p. 34; Murray, p. 97; Stavrinaos, p. 104f.
- 144 Murray, p. 99f.
- 145 Mihailo D. Stojanovic, *The Great Powers and the Balkans 1875-1878*, Cambridge 1939, p. 3f.; B. Jelavich, *Russia and the Balkans*, vol. I., p. 343f.
- 146 Sax, op. cit., p. 392f.
- 147 جرائد/تمبرلي، ج2، ص 12. Stojanovic, p. 3f; Meininger, op. cit., pp. 104-105.
- 148 B. Jelavich, vol. II, p. 344. المرجع السابق، ج2، ص 11 وما بعد. و:
- 149 Sax, p. 393; Meininger, op. cit. pp. 132-133.
- 150 Charles Jelavich, *Tsarist Russia and Balkan Nationalism. Russian Influence in the Internal Affairs of Bulgaria and Serbia, 1879-1886*, Berkeley/Los Angeles 1962, p. 120.
- 151 Charles Jelavich, op. cit., p. 12.
- 152 Giacometti, op. cit., Doc. no. 1, pp. 16ff.
- 153 نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، لات/لام، ترجمة أحمد بو ملحم، ص 90-91.
- 154 Giacometti, Doc. no. 1, 2, pp. 16ff., 22ff.
- 155 سعاد سليم، ص 9.
- 156 Julius Richter, *A History of Protestant Missions in the Near East*, Edinburgh 1910, pp. 56-57; وانظر الفصل العاشر من كتاب هوبولد، ص 159 - 179.
- 157 نقلاً عن: سعاد سليم، مرجع سابق ص 1.
- 158 Grant R. Barnwell, *The Russo-Turkish War, California 1877*, p. 384; Bamberg, p. 317; Stavrianos, p. 396f.; Sax, p. 313, 316, 359ff; Murray, p. 105.
- 159 Sumner, *Russia and the Balkans*, op. cit., pp. 145-151; Sumner, „Ignatiev at Constantinople 1864-1874, I.“, in: *The Slavonic and East European review*, 11, Anderson, op. cit., p. 181f. و 32(1933), p. 343;
- 160 Stojanovic, op. cit., p. 85.
- 161 Sumner, Ignatiev, I, p. 342ff.
- 162 William L. Langer, *European Alliances and Alignments 1871-1890*, New York 1966, p. 66; Meininger, op. cit., p. 59.

- Sumner, Ignatiev at Constantinople, I, pp. 343-344. 163
 Meininger, pp. 59-60. 164
 Stojanovic, p. 85. 165
 David Mackenzie, „Pan Slavism in Practice: Cherniaev in Serbia (1876)“, in: 166
Journal of Modern History, 36(1964), p. 292.
- Stavrinaos, p. 402; Stojanovic, p. 84f. 167
 Langer, p. 90. نقلاً عن: 168
 B. Jelavich, *The Ottoman Empire, the Great Powers, and the Straits Question 1870-*, 169
1887, Bloomington/London 1973, p. 108; Fliegenschmidt, op. cit., p. 118f. 127ff., 130;
 Fischel pp. 406, 414.
- Langer, p. 91. 170
 Stojanovic, p. 90. نقلاً عن: 171
 المرجع السابق، ص 229. 172
 Fischel, p. 413. 173
 Bamberg, p. 469; Fischel, p. 413. 174
 Ilman, op. cit., p. 174; Fischel, p. 413. 175
 W. Rüstow, *Der Krieg in der Türkei. Zustände und Ereignisse auf der* 176
Balkanhalbinsel in den Jahren 1875 und 1876, Zürich 1877, p. 294f.
- Georg Webers, *Lehr- und Handbuch der Weltgeschichte*, 21. Aufl. neu 177
 bearb. von Alfred Baldamus, IV. Ausg., Bd. IV, Leipzig 1911, p. 669.
- Stead, op. cit., p. 207, 231-233. 178
 Fischel, p. 414. 179
 Langer, p. 116. وقارن به: 180
 Machenzie, *Pan Slavism*, op. cit., p. 292. نقلاً عن: 181
 Langer, p. 90. Qouted in Fischel, pp. 412-413 وقارن به: 182
 Fischel, p. 416. نقلاً عن: 183
 نقلاً عن المرجع السابق، ص 416. 184
 Rüstow, pp. 350-353; Stojanovic, P. 90. 185
 Georg Webers, op. cit., Bd. IV, p. 669. 186
 Stojanovic, p. 154. 187
 William Langer, *European Alliances and Alignments*, op cit., p. 106ff. 188
 Stead, op. cit., pp. 319-320. 189
 وافقت روسيا في الاتفاقية الثانية مع النمسا/هنغاريا على ضم الدولة الجرمانية البوسنة والهرسك، مقابل إستيلائها على 190
 جنوب بساراييا، أنظر: Anderson, p. 185f. 191
 Anderson, p. 193f. ; Charles Jelavich, *Tsarist Russia*, p. 4,12;
 Rüstow, p. 209.
- Weltgeschichte in Zehnbänden*, Redaktion J.J. Sutis, Bd. VII, Berlin 1966, p. 182. 192
 Sumner, *Russia and the Balkans*, op. cit., p. 299.
- Anderson, p. 197; Rüstow, p. 350ff.; Stojanovic, p. 90. 193
 نقلاً عن: 194
- G.D. Clayton, *Britain and the Eastern Question: Missolonghi to Gallipoli*, London
 1971, p. 142.
- نقلاً عن المرجع السابق ، ص 154. 195

Elizabeth Wormeley Latimer, *Russia and Turkey in the Nineteenth Century*, 4. ed., 196
Chicago 1897, pp. 257, 259.

- 197 نقلاً عن: Stojanovic, p. 154; Fischel, p. 415.
- 198 Latimer, *Russia and Turkey in the Nineteenth Century*, p. 296.
- 199 ترأس إغنائيف الوفد الروسي إلى مفاوضات سان ستيفانو، وحاول ممارسة الضغط على الباب العالي مهدداً باحتلال الأستانة. وقد فشلت كل محاولاته لإجبار الدولة العثمانية على توقيع معاهدة مع روسيا على نسق هنكار أسكله سي.
- أنظر: Stojanovic, p. 231f; Jelavich, *Tsarist Russia*, p. 5f. 200
- Stead, op. cit., p. 466. 201
- Langer, p. 138. 202
- Weltgeschichte in Zehnbänden, op. cit., Bd. VII, p. 83ff. 203
- Jelavich, *Tsarist Russia*, p. 10. 204
- المرجع السابق ص 12 وما بعد. 205
- المرجع السابق، ص 11. 206
- Quoted from Stavrou, p. 46, 53. 207
- Quoted in Stead, op. cit., pp. 468-470. 208
- Richard Millman, *Britain and the Eastern Question 1875-1878*, Oxford 1979, pp. 282ff., 310, 336f, 372-402.
- W.N. Medicott, *The Congress of Berlin and After 1878-1880*, London 1938, pp. 45-125. 209
- و.قارن بـ: B. Jelavich, *Tsarist Russia*, op. cit., p. 184. 210
- Stavrou, op. cit. p. 54. 211
- Stead, op. cit., p. 525. 212
- نقلاً عن المرجع السابق، ص 529 - 530. 213
- Charles Jelavich, *Tsarist Russia*, p. 15. 214
- Kohn, *Pan Slavism*, op. cit., p. 170. 215
- Kohn, p. 166; Riasanovsky, *Russia and the West in Teaching Slavophiles*, op. cit., pp. 53f., 202; Stead, p. 521 - 522.
- Kohn, p. 173. 216
- Elizabeth Wormeley Latimer, *Russia and Turkey in the Nineteenth Century*, pp. 296-297, 357. 217
- Hösch, *Geschichte der Balkanländer*, op. cit., p. 111; Charles Jelavich, *Tsarist Russia*, p. 13. 218
- Stavrou, p. 118. 219
- Hösch, p. 112; Charles Jelavich, *Tsarist Russia*, p. 10f. 220
- Stavrou, p. 117. 221
- Forbes ect., pp. 57-60; Fliegenschmidt, op. cit., p. 128; Kohn, p. 173. 222